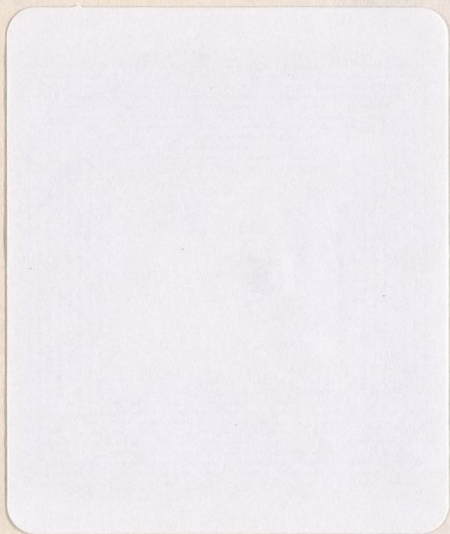
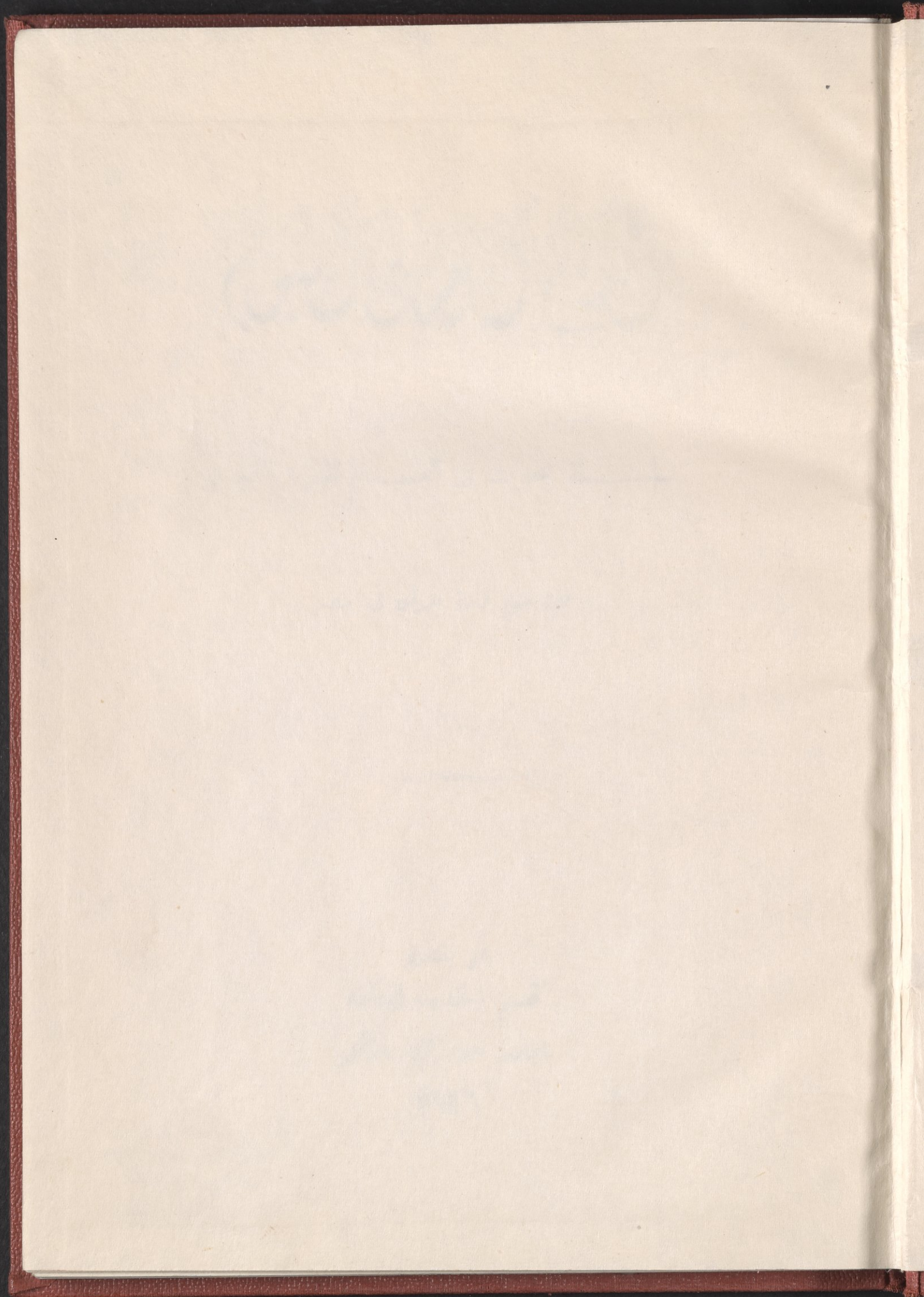


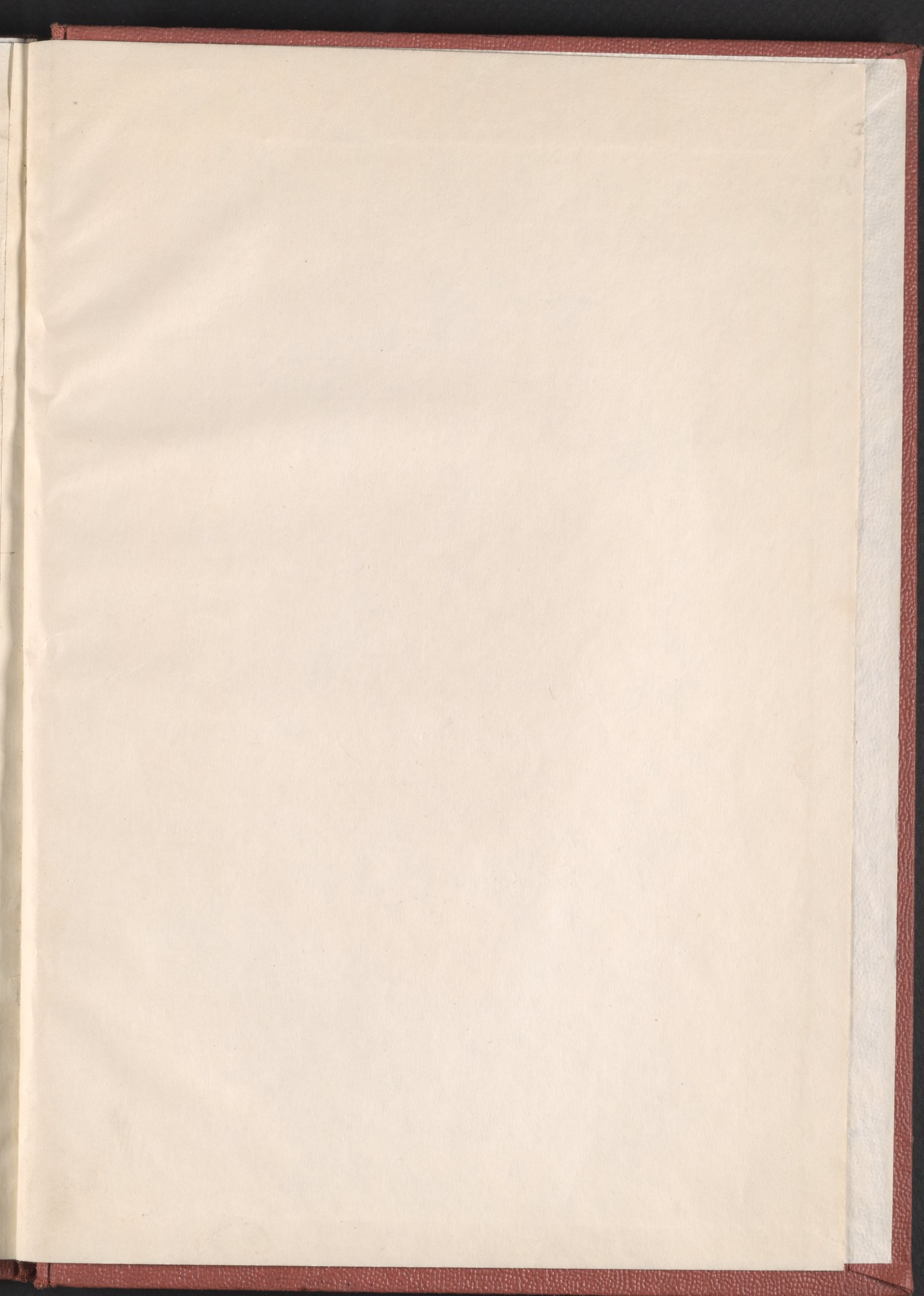
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01115 5375

04-B314

pt 22-1-04







١٥٥

٦٣

A 48

١٩٤٦

العالم العربي اليوم

سلسلة بحوث في العالم العربي اليوم

لتحفة من فائدة الرأي في مصر

عنى بنشره

قسم الخدمة العامة

بالجامعة المصرية بالقاهرة

١٩٤٦

المطبعة المصرية بمصر

لصاحبها: الياس انطون الياس

٦- الخليج الناصري بالقاهرة

فهرس

- (١) « البيئة الجغرافية للأقطار العربية »
دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى
- (٢) « شعوب الأقطار العربية »
دكتور عباس عمار
- (٣) « الحياة الاقتصادية في البلاد العربية »
الأستاذ سامى السراج
- (٤) « مكانة المرأة في البلاد العربية »
صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوى
- (٥) « النظم التشريعية وحقوق الانسان في البلاد العربية »
سعادة دكتور عبد الحميد بدوى باشا

العالم العربي اليوم

كان في مقدمة المسائل التي أثارت اهتمام الشرق الأوسط في خريف عام ١٩٤٤ انشاء الجامعة العربية ، ولم يكن يخفى ما لهذا الحادث من أهمية كبرى وأثر بالغ في تقدم البلاد العربية ومعاونة هيئة الأمم المتحدة في تنظيم العالم كله، لذلك عنى قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بتنظيم سلسلة بحوث في موضوع « العالم العربي اليوم » القيت في شتاء عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وتفضل بإعداد البحوث والقائمها ومناقشتها ثمانية من الأساتذة المعروفين بسعة اطلاعهم ورسوخ قديمهم في الموضوعات التي عالجوها على النحو التالي .

- | | |
|---|---|
| « البيئة الجغرافية للأقطار العربية » | {
دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى
استاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول |
| « شعوب الأقطار العربية » | {
دكتور عباس عمار
المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول |
| « الحياة الاقتصادية في البلاد العربية » | الاستاذ سامى السراج |
| « الحياة الاجتماعية في البلاد العربية » | {
الأستاذ خليل بك ثابت
عضو مجلس الشيوخ |
| {
« النظم التشريعية وحقوق الانسان في
البلاد العربية » | {
سماعة دكتور عبد الحميد بدوى باشا
وزير الخارجية سابقاً |
| « مكانة المرأة في البلاد العربية » | {
صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوى
رئيسة الاتحاد النسوي |

العالم العربي اليوم

دكتور ابراهيم بيومي مدكور
عضو مجلس الشيوخ

« الحياة الثقافية في البلاد العربية »

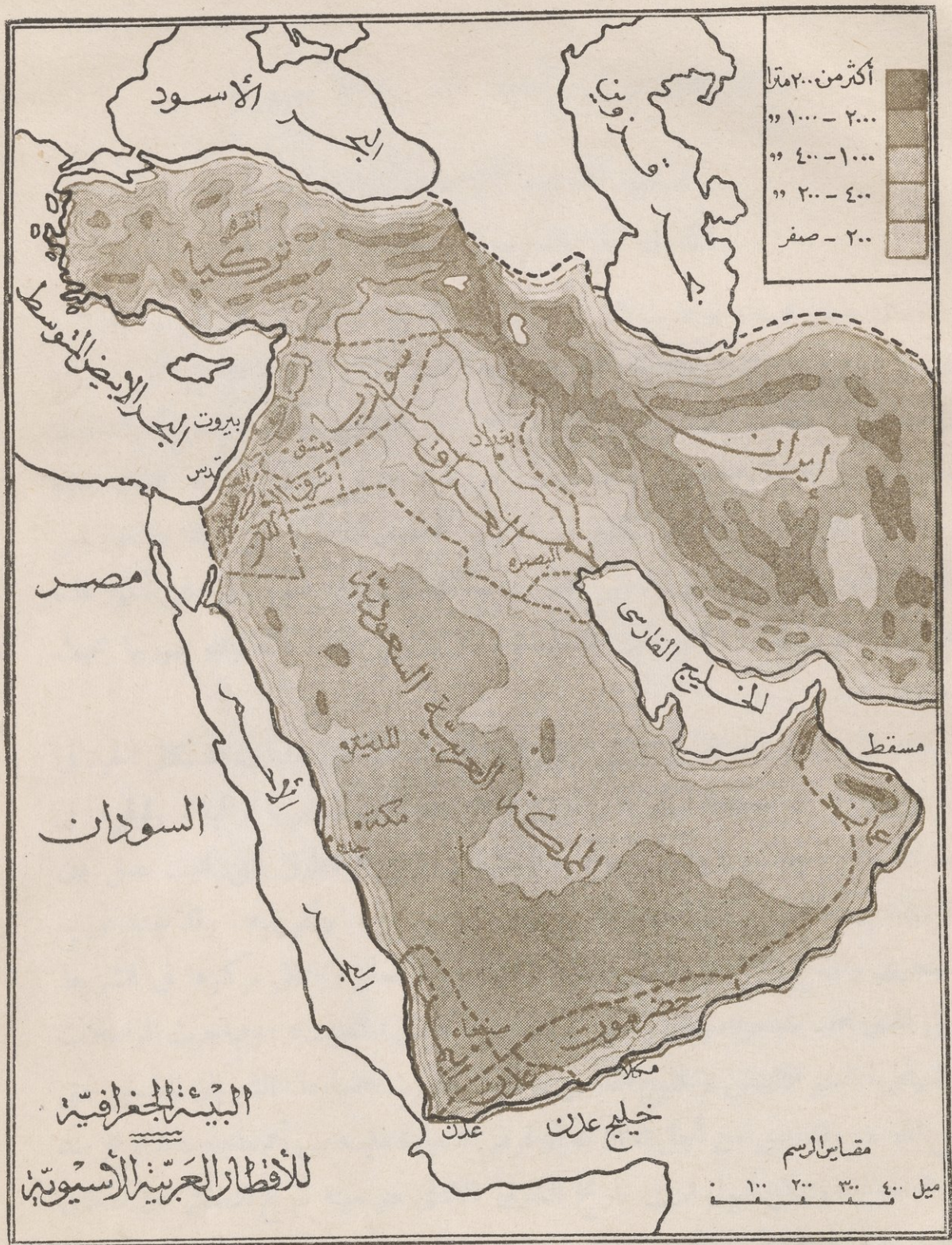
« الأسس التي يمكن أن يثاد عليها
حلف عربي »

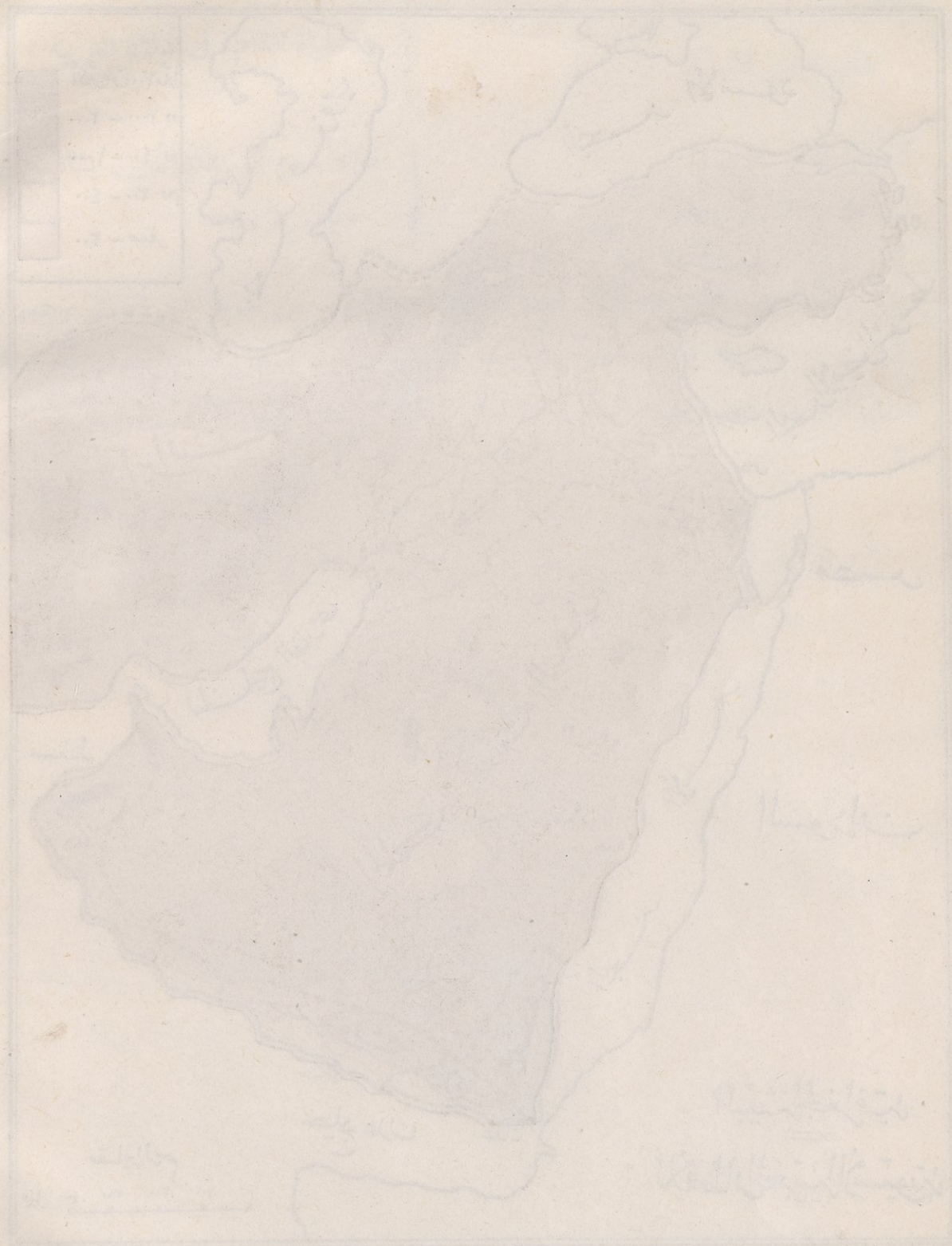
دكتور محمود عزمي
المستشار الملكي المساعد

ويسر قسم الخدمة العامة أن أتيح له طبع خمسة بحوث من الثمانية التي أقيمت وجمعها في كتاب واحد وهو إذ يقدمها المهتمين بدراسة هذه الموضوعات يسجل فضل حضرات المحاضرين الذين قاموا متطوعين بأعداد البحوث والقائما وتجهيئها للطبع ثم تصحيح مسوداتها ما

ونزل كليمندر

مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بالقاهرة





البيئة الجغرافية للاقطار العربية الاسيوية

للدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تسكاد تنظم هذه الوحدات العربية لتكون فى مجموعها ماجرى العرف على تسميته باسم « الشرق الادنى » ؛ أما من الناحية الجغرافية البحتة فان هذه الأقطار تدخل ضمن ما يعرف تحت مصطلح « هضاب جنوب غرب آسيا » وهنا تسود اللغة العربية بحيث تصبح أهم الصفات المميزة ومن ثم كثر وشاع استعمال تعبير « آسيا العربية » . وليس من شك ان هذا القول يقوم على الاساس اللغوى لدرجة أعظم بكثير من الاسس الاخرى المشتركة مثل البيئة والتضاريس والمناخ والنبات والجنس والدين والتطور الحضارى والاقتصادى والسياسى . وفى الحق تكون هذه الاقطار فى جملتها وحدة جغرافية ذات صفات خاصة بها وفى الوقت ذاته تبدو صورتها بحيث تختلف عما يجاورها .

وقد كان الموقع الجغرافى ولا يزال أعظم العوامل الجغرافية التى حددت اشكال الحياة فى هذه الوحدة وقررت مصيرها منذ أقدم عصور تاريخ الحضارات البشرية الراقية . ولوقوعها فى وسط العالم القديم بين اوربا وآسيا وأفريقية أصبحت ملتقى أهم الطرق التى كانت تصل بين اوربا والشرق الاقصى وكذا الطرق البرية التى تربط بين اوربا وأفريقية . وقد حدد توزيع الصحارى واتساع امتدادها مواطن خطوط الانتقال والاتصال وبالتالى مركزها فى الشريط الضيق الذى يحف بصحراء سوريا والذى يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، وفيه جرت المواصلات بين شواطئ البحر الابيض والخليج الفارسى ، وهكذا تطورت أهمية هذا الشريان الطبيعى حتى أصبح التزاحم والمنافس من أجل امتلاكه أو فرض السيادة عليه من أهم ما جاء به التاريخ منذ أقدم العصور . ويمكن القول ان تاريخ الشرق الادنى هو بعينه تاريخ النضال بين سكان الحافات الجبلية فى الشمال والجماعات الصحراوية فى الجنوب بشأن هذا « الهلال الخصيب » الذى يشمل نطاقه مواطن عدد من أقدم الحضارات البشرية وأرقاها كما شهد قيام ثلاث امبراطوريات عظيمة فى آشور وسومر وبابل ورأى عصور ازدهارها ومراحل انحلالها واختفائها .

وقد كان هذا النطاق الضيق بفضل حياته العشبية الغنية نسبياً يمثل قطباً مغناطيسياً تنجذب اليه عناصر السكان في حالة ازديادها الطبيعي وتقصده اليه الهجرات الدورية الناتجة عن اثر الجفاف في ربوع مراعى الاستبس في بلاد العرب وروسيا وغرب آسيا ، كما جاءت اليه العناصر السامية المهاجرة عن طريق مدخليه في الطرفين الشرقي والغربي . ويلوح ان الأودية الرئيسية لعبت دوراً هاماً إذ كانت تمثل بدورها خطوطاً ثانوية تؤدي في النهاية الى مركز الجاذبية ومن أشهرها وادي الرمة الذي يبدأ في نجد الغربية وينتهي قرب مصب شط العرب في الخليج الفارسي ثم وادي سرحان الذي يبدأ في اقليم الجوف ويقصد الى منطقة حوران وهضبة شرق الاردن. وما زالت طرق القوافل التي تخرج من قلب اقليم نجد تستخدم هذين الطريقين الطبيعيين .

ويجمل بنا أن نذكر ان الطبيعة قد رسمت حدود آسيا العربية بعناية إذ منحتها خطوطاً تضاريسية بارزة ونخص بالذكر حدها الشمالي الذي يتفق مع الحائط المرتفع الذي يمثل حافة هضاب آسيا الصغرى وايران وتقصده هنا جبال طوروس وامتدادها الشرقي في مرتفعات كردستان، وتقوم جبال زاغرس بمهمة الحراسة على الجانب الشرقي . وفيما عدا برزخ السويس الضيق الذي يفصل بينها وبين أفريقية تطل أجزاءها في الشمال الغربي على البحر الابيض المتوسط وفي الجنوب الغربي على البحر الاحمر وفي الجنوب والجنوب الشرقي على البحر العربي وخليج عمان والخليج الفارسي .

وأهم مظاهر التضاريس في هذه الوحدة الجغرافية هضبة بلاد العرب التي تظهر حافتها الغربية المطلة على البحر الاحمر على شكل حائط مرتفع على حين تتدرج ببطء نحو الشمال والشمال الشرقي حيث سهول الجزيرة والخليج الفارسي . غير ان هضبة بلاد العرب تغير مظهرها العام عند جانبيها في الشرق والغرب إذ تظهر الجبال المرتفعة التي تمتد في عمان والتي يرجح انها من حيث بنيتها ونظام تكوينها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظائرها في جنوب ايران ، اما على الجانب الغربي فتظهر هنا جبال سورية ولبنان وفلسطين التي أثرت لدرجة عظيمة في المناطق التي توجد فيها ، ومن ثم أصبحت من أهم مظاهر التضاريس وأبرزها . ويختلف اتساع السهل الساحلي في محاذاة ساحل البحر الابيض المتوسط من جهة عن الاخرى بسبب اقتراب أو ابتعاد السلاسل الجبلية من الشاطئ . واذا كان السهل الساحلي يبدو ظاهراً ومتسعاً في فلسطين فإنه يظهر على

شكل شريط ضيق في لبنان حيث تقترب جداً جبال لبنان الغربية التي تحتضن الشاطئ وتمتد محاذية له .

والى خلف هذا النطاق الجبلى يشتد الانحدار نحو المنخفض الاخدودى العميق الذى يغلب على اتجاهه العام أن يكون من الشمال الى الجنوب حيث يفرغ مياهه فى البحر الميت (بحر لوط). والى شرق هذا الاخدود المنخفض تقوم سلاسل جبال لبنان الداخلية التى يعظم ارتفاعها واتساعها فى سورية على حين انها فى امتدادها نحو الجنوب حيث تظهر فى تلال مؤاب فى شرق الاردن تكون أقل ارتفاعاً واتساعاً ، ويلحظ ان الانحدار نحو الشرق يكون بطيئاً وتدرجياً .

ويظهر للباحث أن مظهر البساطة وقلة التعقيد التى تميز معالم التضاريس فى هذه الوحدة انما يرجع الى عامل البساطة التى تتميز بها تركيبها الجيولوجى . ذلك انه من الناحية الجيولوجية البحتة يمكن القول ان معظم هضاب جنوب غرب آسيا يتبع الهضبة الافريقية على حين ان عمان وأراضى الخليج الفارسي تتبع التاريخ الجيولوجى لايران المجاورة . ويمثل النطاق الجبلى الذى يتكون من جبال زاغرس ومرتفعات كردستان وطوروس الخط الفاصل بين النظامين الجيولوجيين الاسيوى والافريقى . وليس من شك ان هضبة بلاد العرب وصحراء سوريه يمكن اعتبارهما امتداداً للنطاق الصحراوى الافريقى العظيم ولا يقتصر التشابه على نوع الصخور ونظام الطبقات ووجود بعض المرتفعات والمنخفضات بل تتكاد تتشابه لدرجة عظيمة فى مظاهر المناخ السائد . أما إيران وأرمينية وآسيا الصغرى وجميعها خارج هذه الوحدة الجغرافية فتترتبط مع آسيا الوسطى سواء فى التاريخ الجيولوجى ومظاهر التضاريس ، حيث الجبال الالتوائية والاوودية التى تفصل بين سلاسلها والتى تمتلى بالتدرج بفضل ما يحيط اليها من الرواسب .

ويلحظ انه يصعب الفصل بين مظاهر التضاريس وآثار المناخ السائد فى ربوع جنوب غرب اسيا . واذا كانت المنحدرات الشمالية لهضبة بلاد العرب تبدو منبسطة متدرجة فانما يرجع ذلك الى المناخ الجاف والى بروز أثر عوامل التعرية الجافة وندرة المجارى المائية بصفة عامة . ولا تقوم السلاسل الجبلية بوظيفة الفصل بين الاجزاء المختلفة إلا فى حالات نادرة بل يغلب أن تقوم بهذه المهمة المساحات الكبيرة من الصحارى القاحلة الجرداء . ولا توجد الانهار الدائمة إلا فى مناطق الحافات الممطرة ومن خير الامثلة نهرا دجلة والفرات اللذان ينبعان فى الخارج ويستمدان مياههما من ثلوج عقدة ارمينية بعد ذوبانها . كذلك فى الغرب يوجد نهرا العاصى

والاردن وفيما عدا هذه الانهار الدائمة الجريان وأمثالها تتكرر ظاهرة الاودية والسهول التي تمتلئ بمجاريها بالمياه في فصل الامطار ثم تجف متى حل فصل الجفاف الطويل .

وقد حددت الطبيعة طرق الانتقال عبر هذه الهضاب فمثلا كانت المسالك الرئيسية للاتصال بين حوض البحر الابيض المتوسط والاقاليم الموسمية في جنوب اسيا وشرقها تتبع الطرق الآتية :

- ١ - طريق البحر الاحمر وما يتصل به من الطرق الثانوية على الجانبين .
- ٢ - طرق الخليج الفارسي التي كانت تربط بين ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى وأراضي الجزيرة والخليج الفارسي وهذه كانت بطبيعة الحال تجرى عبر « الهلال الخصيب » الذي يحده شمالا النطاق الجبلي المرتفع ويحف به من الجنوب الصحراء السورية العظيمة وقد كانت حلب ومنطقتها على اتصال بالبحر الابيض المتوسط وكانت تؤدي اليها الطرق الآتية :

- ١ - الطريق من قيليقية عبر ممر بونججه في سلسلة جبال امان الى سنجق وحلب .
 - ٢ - الطريق من الاسكندرونة عبر ممر بيلان الى حلب .
 - ٣ - الطريق من ساحل البحر الابيض عبر عنق نهر العاصي ومن ثم الى حلب .
- ولا يمكن المبالغة في تقرير أهمية هذه الطرق إذ يكفي أن نذكر ان التنافس بشأنها بلغ أشده بين دول الحضارات القديمة الراقية مثل مصر وبابل وآشور ويران واليونان والرومان وقد تجدد هذا الصراع في الوقت الحاضر ولم يعد الامر قاصراً على الوحدات السياسية التي يهتمها الموضوع مباشرة بل دخلت الدول العظمى حلبة المنافسة .
- أما في بلاد العرب الاصلية فأهم الطرق :

- ١ - الطريق من البصرة في شرق الاردن عبر الجوف الى حائل عاصمة النفود . وقد كان هذا الطريق ولا يزال حلقة الوصل بين الطرف الغربي للهلال الخصيب وأواسط بلاد العرب الشمالية .
- ٢ - الطريق من دمشق في سوريه الى صنعاء في اليمن ماراً بالمدينة ومكة وهذا الطريق بدوره كان يربط بين الطرف الغربي للهلال الخصيب وقلب بلاد العرب الجنوبية الغربية .

- ٣ - الطريق من البصرة عند رأس الخليج الفارسي الى صنعاء في اليمن ماراً ببريدة في نجد

ومكة في الحجاز . وهكذا كان هذا الطريق يربط بين الطرف الشرقى للهلال الخصيب ومراكز الحضارة في شمال بلاد العرب وجنوبها .

وقد كان الطريق الاول والثالث يتبعان لدرجة عظيمة أودية سرحان والرمة وقد سلكتهما أيضاً هجرات العناصر السامية نحو الشمال الى « الهلال الخصيب » أما الثانى فقد كان الطريق التجارى بين الهند والغرب وقد عظم أثره وذاعت شهرته بعد ظهور الاسلام .

ويلوح أن توزيع هذه الطرق الطبيعية قد جاء نتيجة المجهودات البشرية العظيمة التي أريد بها التغلب على الصعوبات الطبيعية ممثلة في مظاهر التضاريس سواء كانت الجبال العالية كما هي الحال في الحجاز الجبلى الشمالى أو بقصد اجتناب المناطق الصحراوية الجافة الموحشة التي تكاد تخلو من الماء والنبات مثل اقليم الدهناء أو النفود ذات الكثبان الرملية العالية أو الاحقاف ذات الكثبان الرملية الناعمة المتحركة أو الحرات ذات السطح الصخري البركانى ؛ وهكذا جاء اختيار هذه الطرق للربط بين أجزاء الاقطار العربية الاسيوية بعضها ببعض الآخر . وفي جميع هذه الحالات لعبت الواحات وأماكن الكلاً ومواطن الينابيع والآبار دوراً هاماً في تيسير عمليات الانتقال على طول هذه الطرق المجهودة سواء في السلم أو في الحرب .

أما المناخ فيختلف باختلاف الموقع وخط العرض إذ تختلف الأجزاء الغربية مثلاً عن نظائرها في الوسط أو الشرق كما يختلف مناخ الجهات المعتدلة الشمالية عن نظائرها المدارية الجنوبية . وعلى ذلك نجد أن فلسطين ولبنان وسوريه والعراق والهلال الخصيب بصفة عامة تدخل ضمن قائمة الاقاليم التي تشترك بأنصبة متفاوتة في المظاهر المناخية التي تتمثل في نوع مناخ البحر الأبيض المتوسط . وفي الواقع يمكن اعتبار مناخ هذه الاقاليم امتداداً لهذا النوع من المناخ في غرب اسيا . أما معظم بلاد العرب فيتبع لدرجة عظيمة مناخ النطاق الصحراوى المدارى الافريقى ويمكن اعتبارها امتداداً لهذا النوع المناخى الافريقى في جنوب غرب آسيا ؛ ولهذا كانت الامطار الشتوية في الأجزاء الشمالية تابعة في أصلها ومسبباتها لحوض البحر الأبيض المتوسط ، وهى التي يرجع اليها الفضل في التمييز بين الأجزاء المختلفة من حيث المقدرة على الانتاج الزراعى أو الرعوى أو الغابى ، وبالتالى تحديد مواطن السكنى والحضارة والعمارة .

وتعتبر بلاد العرب الأصلية من أجف جهات العالم ويزيد جفافها كونها محاطة لدرجة عظيمة بنطاق من الحافات العالية التي تقف حائلاً عظيم الأثر دون أن يتعدى أثر الرياح المحملة

بالبحر النطاق الساحلى فى معظم الاحيان . ومن ثم كان نصيب الجهات الداخلية من الامطار ضئيلاً للغاية . ولهذا تصبح بلاد العرب فى فصل الصيف شديدة القىظ بالغة الحرارة والجفاف . ولا يشذ عن ذلك سوى الحافات المرتفعة فى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى لأنها تصيب قدرأً لا بأس به من الامطار الصيفية الموسمية . وهكذا تكاد هذه العوامل تحدد مواطن الانواع النباتية الطبيعية وتقرر أوجه النشاط البشرى فى الاجزاء المختلفة . واذا كانت الزراعة ممكنة حيث يتوافر الماء فانها تركزت فى الجهات التى تصيب من الامطار قدرأً كافياً كما هى الحال فى مواطن الانتاج الزراعى فى فلسطين ولبنان وسوريه واليمن وعمان ، وحيث يمكن الانتفاع بمياه الانهار كما هى حالة اراضى العراق الزراعيه ، وفى النهاية حيث توجد الينابيع ويمكن حفر الابار كما هى الحال فى الواحات المختلفة . أما الرعى فقد أصبح الحرفة الغالبة فى جميع مناطق السكلاً ، وتركت الجهات الجافة الصحراوية الرملية أو الحصوية أو الصخرية خالية أو شبه خالية من السكان ومن مظاهر النشاط البشرى بصفة عامة .

غير انه يظهر ان صور الاجزاء المختلفة من اسيا العربية قد تغيرت وتبدلت على ممر العصور . ويلوح ان أهم العوامل التى سببت هذا التغير كانت تمت الى المناخ بصلة قوية كما جاءت به ابحاث هنتنجتن وبروكس وأمثالهما فيما يتعلق بالتغيرات المناخية . ويكاد يتفق الجميع على ان هذا القسم من العالم قد شمله الجفاف التدريجى ، والادلة على هذا القول كثيرة ومتعددة فمثلاً تظهر بعض الجهات التى كانت فى وقت ما تعج بالسكان وتحفل بمظاهر الثراء المادى والحضارة الراقية وكأنها قد فقدت ثراءها ورخاءها وهجرها كثير من سكانها ولم يبق بها سوى هؤلاء الذين ارتضوا لأنفسهم هذه الحياة القاسية فى ظل هذه البيئات الفقيرة المتأخرة . ويذهب هنتنجتن الى تعداد البراهين المتنوعة لدعم نظرية الجفاف فيذكر الجسور الرومانية القديمة التى تبدو الآن قائمة على جوانب المجارى والغدران الجافة المتربة فى سوريه ، وكذا بقايا الحياة الشجرية فى مناطق لا أثر للاشجار فيها الآن كما هى الحال فى شمال سوريه . ويضيف الى ذلك اثار العمارة والحضارة من منازل السكنى وبقايا الينابيع والآبار والنافورات والاعمال الهندسية المائية التى ما زالت قائمة فى قلب الصحراء وتنطق بالبرهان الملموس شهود عدل على ما كانت عليه هذه الجهات أثناء عمرانها وازدهارها وتوافر الماء بها .

واذا كانت بالميرا (تدمر) قد نجحت ابان القرن الثالث الميلادى فى ان توسع دائرة نفوذها وسلطانها ليشمل سوريه وأراضى الجزيرة وجزءاً من القطر المصرى فانها الآن لاتضم

أكثر من مائة اسرة فقيرة مجهدة راضية بالكفاف في بيئتها الفقيرة الضامرة . وقد كانت بطره (البطراء) من أعظم مرا كز القوافل في ذلك العصر ومع هذا فقد أصبحت الآن خاوية على عروشها وتركها أصحابها تندب حظها العاثر وجفافها القاتل كما اختفت أيضا مظاهر النشاط التي كانت تظهر على طول طرق القوافل المتفرعة منها الى غزة وخليج العقبة والخليج الفارسي . ويجد الباحث في السكتب السماوية من الادلة والشواهد ما يؤيد الرأي الخاص بالجفاف التدريجي ؛ وإذا كانت أسباب مثل هذه التغيرات المناخية مازالت مجهولة فإنه قد أصبح مقررًا وثابتًا ان تاريخ هذه الاقاليم قد تأثر كثيرا بسبب هذه الدورات المناخية وما ترتب عليها من التغيرات سواء في توزيع الحرارة أو درجة الرطوبة ، وليس الامر قاصرا على اقطار الشرق الادنى بل توجد جهات أخرى تعرضت لمثل هذه الظاهرة ومن خير الامثلة جنوب غرب الولايات المتحدة . وليس من شك ان كمية الأمطار في الشرق الادنى قد أصابها الضعف بدليل ما جاءت به دراسات مستويات المياه في البحار الداخلية والبحيرات مثل قزوين والميت وطبرية وأمثالها . ويضيق المقام عن سرد الادلة المتنوعة الاخرى التي تؤيد حدوث التغيرات المناخية حتى أصبح الامر حقيقة علمية مدعومة . وقد حاول هنتنجن التاريخ لفترات الجفاف وذهب الى افتراض ان الدورة المناخية كانت حسب أبحاثه وملاحظاته تستمر نحو ثمانية سنة . ولكن هذا الفرض مازال معلقا وهناك من يفترض للدورة المناخية فترة أقصر بكثير وقد دعا البعض الى قبول فترة ثلاث سنوات وجاء غيرهم بفترة احدى عشرة سنة ونادى آخرون بفترة مداها يتراوح بين خمسة وستة وثلاثين عاما .

هذه الظروف الجغرافية تركت اثرها في اجزاء الاقطار العربية وحياتها البشرية . وفي الواقع يحق للباحث في جغرافية آسيا العربية أن يعجب لهذا التناقض الظاهر بين أجزائها منذ بدء التاريخ اذ بينما رأت أجزاؤها الغربية والشمالية الشرقية تلك الحضارات القديمة الراقية التي بعثت النور والتقدم والعرفان الى البيئات المجاورة والتي ازدهرت وأينعت قرون عديدة نجد ان جزءا عظيما من هذه الوحدة الجغرافية لم يكشف عنه النقاب تماما إلا في السنوات الاخيرة رغم الجهود العظيمة التي بذلها المصريون القدماء والآشوريون والبابليون والقرطاجيون والفرس واليونان والرومان والعرب أنفسهم مدى العصور لكشف الاجزاء الغامضة في شبه الجزيرة العربية . ويلوح ان العوامل الجغرافية كان لها أكبر الاثر في هذا التناقض الظاهر وهي التي عرقلت كشف هذه الاجزاء وعطلت تقدمها ونهوضها . وتتلخص هذه العوامل في شكل التضاريس ومظاهر السطح

ونوع الساحل وحالة المناخ والحياة النباتية . وكثيراً ما كانت السواحل لا تشجع على الاقتراب منها بقاءً سواء بسبب ندرة تعاريجها أو ضحولة مياهها وكثرة الشعب المرجانية والصخور التي تجعل ملاحظتها خطيرة وعسيرة ، أو بسبب قيام حافة الهضبة حائلاً منيعاً بين الساحل والداخل ، أو بسبب كون الصحراء الرملية أو الصخرية تحف بها فتزيد من قفرها ووحشتها وظلمتها . كذلك وقف المناخ حجباً عثرة وكثيراً ما حال دون الوصول الى بعض أجزائها في الداخل :

والى جميع هذه العوامل الجغرافية مجتمعة يرجع ذلك الاختلاف بين الاجزاء من حيث درجة الحضارة والتقدم إذ بينما نرى مظاهر التقدم واضحة في الاجزاء المعتدلة المناخ الوفيرة الامطار والمياه كما هي الحال في الاقطار المطلة على ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقي ، وفي أراضي الجزيرة ، وفي اليمن المرتفعة الموسمية ، نجد في الوقت نفسه ان معظم آسيا العربية وخاصة المناطق المدارية شبه الجافة والصحراوية مازال متأخراً ، ولو ان درجة التأخر تتفاوت من اقليم الى آخر فمثلاً ساكن الجهات الصحراوية والمرتفعات الجافة مازال يعيش تحت رحمة الطبيعة القاسية ومثله مثل أضعف المخلوقات ، أما في مناطق الرعي فقد بدأت علامات الحضارة المتقدمة نسبياً بعد أن أخذ سكانها يرعون قطعانهم ويحترفون الزراعة كلما أمكن ذلك ؛ وبالتالي أخذوا يفلتون من قبضة الطبيعة القاسية . ومثل ذلك القول ينطبق على سكان الصحارى الذين اتخذوا الجمل أداة لقطع الصحراء ونقل المتاجر بين الاجزاء ثم عمروا واستوطنوا الواحات ، واتخذوا منها محطات لخدمة قوافل التجارة في السلم وتيسير هجرات الغزو والفتح كلما دعا الامر الى الاغارة والحرب .

هذا مجمل مقتضب للعوامل الجغرافية الاصلية وأثرها في الاقطار العربية وحياتها بصفة عامة أما العوامل الجغرافية الاخرى الخاصة بتوزيع موارد الثروة المعدنية الطبيعية وكذا النتائج المترتبة على أهمية الموقع الجغرافي ومبلغ ارتباطه بالسياسات الدولية في السياسة والاقتصاد والتجارة فقد أخذت تبرز وتسيطر حتى عظم شأنها وجل خطرها وأصبحت عماد العناية الظاهرة بشئون هذا القسم من العالم في الوقت الحاضر .

ويمكن أن نشير الى ان هذا الميدان قد شمله النشاط بعد أن تكشفت ثروة الحديثة وأصبح الزيت وتوزيعه واستثماره عاملاً جديداً في حياة الاقطار العربية وعلاقاتها مع الخارج .

الدكتور محمد عبد المنعم الشرفاوى

بعض المراجع الهامة

- 1 Dudley Stamp "Asia, an Economic & Regional Geog." London 1929.
- 2 Herbertson & How "Asia, the Oxford Survey of the British Empire Vol. II
London 1914.
- 3 Huntington & Visser "Climatic Changes" London 1924.
- 4 Huntington E. "Pulse of Asia" New York 1919.
- 5 " " "Palestine & its Transformation" New York 1922.
- 6 Brooks "Climate through the Ages" London 1926.
- 7 Kendrew "Climate of the Continents" Oxford 1927.
- 8 Austin-Muller "Climatology" London 1931.
- 9 Campbell "Outline of Plant Geography" London 1926.
- 10 Philby "The Heart of Arabia" 2 vols London 1922.
- 11 " " "Arabia of the Wahabis" London 1928.
- 12 " " "The Empty Quarter" London 1933.
- 13 Doughty, M. "Arabia Deserta" London 1921.
- 14 Simon & Stein "Awakening Palestine" London 1923.
- 15 Sloan "Wanderings in the Middle East" London 1924.
- 16 Stoddard, L. "The New World of Islam" London 1935.
- 17 Semple, E. "The Geog. of the Medit. Regions, its Relation to
Ancient History." London 1932.
- 18 Erskine "Transjordan" London 1924.
- 19 El Rihani, A. "Aronnd the Coasts of Arabia" London 1930.
- 20 " " "Arabian Peaks & Deserts" London 1930.
- 21 Anstey "The Trade of the Indian Ocean" London 1929.
- 22 Rostovtzeff "A History of the Ancient World" Oxford 1930.
- 23 Childe, G. "New Light in the Most Ancient East" London 1929.
- 24 Publications of the American Geog. Society "Oriental Explorations &
Studies" New York 1927.

شعوب الأقطار العربية الأسبوعية

للمدكتور عباس مصطفى عمار

المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تمهيد في المقياس الجنسي لتقارب الشعوب وتباعدها :

أثار التفكير في تكوين جامعة الدول العربية ضرورة البحث في الأسس التي يمكن أن تقوم عليها دعائم هذه الجامعة ، وكان طبيعياً أن تتناول الدراسة الناحية الجنسية لسكان تلك الدول ، باعتبار أن رابطة الدم كانت دائماً من أقوى الروابط التي تربط بين الأمم المختلفة ، وهي الآن الأساس الذي تقوم عليه فكرة « النظرية العنصرية » وما يرمى إليه دعاؤها من تقسيم العالم إلى مجموعات متقاربة أو متباعدة ، بحسب ما يربط بين أفرادها من صلة الجنس وما يجمع بينها من وحدة الأنساب . . . وإذا كنا نحن لا نوافق دعاة « النظرية العنصرية » على كثير مما يدعون إليه ، ولا نراهم يستندون في دعواهم إلى نتائج البحث العلمي المجرد ، فإنا من غير شك لا ننكر أن وحدة الجنس عامل قوى في ربط الأمم وانسجام العناصر ، بشرط أن تتوافر إلى جانبها تلك العوامل الأخرى التي أصبح لها في الظروف العالمية الحالية مكانة كبرى .

ولعل نعت الشعوب التي تسكن الجزيرة العربية - بأوسع معناها - والتي تعيش في العراق وبلاد الشام بأنها شعوب عربية ، مما قد يوحى بالوحدة الجنسية بين سكان هذه الأقطار المختلفة ، وهو اتجاه شائع بين غالبية الكتاب في موضوع الشعوب العربية وما بينها من صلات . . . هذا التفكير - فيما يظهر - قائم أساساً على وحدة اللغة التي يتكلمها سكان هذه الأقطار جميعاً ، كما هو قائم على عامل الجوار بين هذه الشعوب المختلفة ، وعلى ما كان بينها من اتصال دائم واختلاط مستمر ، مما قد يؤدي إلى صهر العناصر المختلفة صهرًا ربما ينتهي إلى ما يشبه الوحدة الجنسية لهذه الشعوب .

وما نحب من جانبنا أن نتعرض الآن لمثل هذا الرأي بنفي أو تأييد انتظاراً لما ينتهي إليه هذا البحث من نتائج ؛ لكن علينا أن نتذكر دائماً أن علماء الأجناس يرفضون الآن رفضاً تاماً اتخاذ العوامل الثقافية ، من لغة ودين وقومية ، أساساً يقوم عليها الربط . أو الفصل بين الأجناس ؛ لأن مثل هذه العوامل مما يمكن فرضه على الأجناس المختلفة ، بحيث تكون هنالك وحدة ثقافية تامة بين أشد الجماعات تباعداً في الجنس ، كما هو الحال في فرض ثقافة إنجليزية على زنوج إفريقية وفرض ثقافة فرنسية على سكان مدغشقر والهند الصينية ، وكما حدث في اتساع دائرة الثقافة التي ارتبطت بانتشار الإسلام وما أدى إليه ذلك من فرض اللغة العربية والديانة الإسلامية على جماعات لا تمت إلى العناصر التي انتشر الإسلام على يديها بصلة جنسية ما . وإذا كنا نلمس أحياناً لوناً من الارتباط بين بعض الطوائف الدينية وصفات جنسية معينة - كما هو الحال في بعض الجماعات التي تدين بغير الإسلام في شمال العراق وبلاد الشام - ، فإن هنالك مسيحيين لا تختلف مميزاتهم الجثمانية عن المسلمين ، وهنالك من المسلمين أنفسهم من لا يمكن التفريق بينهم وبين الأرمن مثلاً . . . وما الدين هنا في الواقع إلا ظاهرة مرتبطة بالحوادث التاريخية التي وقعت في هذا الجزء من القارة الأسيوية في عهود حديثة نسبياً ، ومن ثم كان من الضروري جداً أن نكون حريصين كل الحرص في إعطاء أهمية للمذاهب الدينية والطائفية ونحن نناقش مسائل الأجناس والقوميات .

يرفض علماء الأجناس إذاً عامل الثقافة أساساً للربط . أو التفريق بين الأجناس ، ويؤكدون الآن ضرورة الاعتماد على الصفات الجثمانية في هذا المجال : من شكل الرأس إلى صفات الوجه ، ومن شكل الشعر إلى أبعاد الأطراف ، مع إضافة صفات فسيولوجية وخصائص دموية يضعون لها أساساً مقررراً ؛ بل إن هؤلاء العلماء ليغالون في هذا الاتجاه ، فيخصون صفات جثمانية بالعناية ويعطونها المركز الأول في التمييز بين الأجناس ^(١) ، على

(١) يعطى علماء الأجناس أهمية كبيرة لما يسمونه (النسبة الرأسية Cephalic Index) وهي نسبة عرض الرأس إلى طوله محسوبة بالمائة ، فإذا كانت تلك النسبة أقل من ٧٥ كان الرأس طويلاً Dolichocephalic وإذا زادت على ٨٠ قيل إن الرأس عريض أو مستدير Brachycephalic وإن وقعت النسبة بين ٧٥ و ٨٠ فالرأس متوسط ، ويذهب غالبية العلماء إلى أن شكل الرأس أقل المميزات الجثمانية تأثراً بظروف البيئة ، ومن هنا جاءت أهميته كصفة أساسية للتمييز بين الأجناس

حين أنهم يقللون من أهمية صفات جثمانية أخرى كلون البشرة وطول القامة ، معتمدين في هذا كله على مدى تأثير الصفة بعوامل البيئة الطبيعية كانت أو اجتماعية ؛ فما دامت الصفة ثابتة لا تتغير تغيراً ملموساً فهي الصفة التي تبرز أهميتها باعتبارها صفة متوارثة تنحدر في السلالات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ^(١) . وما دام الأمر كذلك فقد أصبح من الضروري أن نقصد ما استطعنا في استعمال المصطلحات الثقافية في دراسة الأجناس ، مدركين تمام الإدراك ما قد يؤدي إليه التغاضي عن هذه الحقيقة من خلط كبير . فاصطلاح (كالميامين) الذي يشيع استعماله في كتابة المؤرخين وكتابة عدد غير قليل من الأنثروپولوجيين ليس له معنى محدود في الدراسة الجنسية ، وما هو في الحقيقة إلا اصطلاح ورثناه عن الكتب الدينية أطلق أصلاً على سلالة (سام) الذين ينتشرون فوق مساحة واسعة من الأرض لا يتجانس سكانها تجانساً يمكن أن يبرر وضعهم في وحدة جنسية بالمعنى الدقيق . وكل ما يمكن أن نقوله عنه إنه اصطلاح يميز تلك السلالات التي تتكلم اللغات السامية من الأراميين والسوريانيين و... و... الخ في الشمال ، والأكاديين والبابليين والآشوريين في الشرق ، والعرب في الجنوب ، والفينيقيين والعبرانيين و... و... في الغرب ؛ أو بمعنى آخر سكان ذلك الاقليم الذي تحده مرتفعات طوروس وأرمينيا وإيران والخليج الفارسي والبحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط . بكل ما يدخل فيهم من عناصر جنسية متباعدة .

وما يقال عن الساميين يقال أيضاً عن العرب ، ذلك الاصطلاح الذي يضل في مدلوله الجنسي أكثر مما يضل استعمال كلمة الساميين في هذا المجال ، لأنه اصطلاح لا يختلط بالتقسيمات اللغوية وحدها ، بل يتعدى هذا إلى التداخل في النواحي الثقافية الأخرى منذ ارتبطت اللغة العربية بالاسلام أو ارتبط الاسلام بها ؛ فمنذ قيام هذا الدين وانتشاره في أوائل

(١) ربما كان من المفيد أن نثبت هنا تعريف الأستاذ (هوتن Hooton للجنس) :

" A race is a great division of mankind, the members of which, though individually varying, are characterized as a group by a certain combination of morphological and metrical features, principally non-adaptive, which have been derived from their common descent "

راجع :

Ernest Albert Hooton = Up from the Ape, London 1931, P. 397.

القرن السابع للميلاد أخذت عناصر كثيرة لا تمت إلى سكان الجزيرة العربية بأية صلة جنسية تدعى العروبة لنفسها ، وتتمسك صلات تربطها في الأنساب بالقبائل العربية عامة والقرشية منها بوجه خاص . . ولم يقتصر هذا الادعاء على تلك الجماعات التي تقرب من سكان بلاد العرب في صفاتها ومميزات الجثمانية ، بل إن هنالك عناصر من سكان الملايو ومن السودانيين تجهر بعروبتها وترجع بنفسها في النسب إلى رسول الله ! !

على أننا إذ نرفض اللغة كأساس من أسس التقسيمات الجنسية ، فما يعنى هذا أننا ننفي أهميتها في هذه الناحية نفيًا باتًا ، لأن وحدة اللغة قد تكون عاملاً يتداخل في اختيار الأزواج ، على اعتبار أن من الضروري توافر التفاهم والانسجام بين الزوجين ، واللغة واسطة ضرورية في هذا المجال . . ما قصدناه إذاً هو ألا نأخذ في تقسيم الأجناس باللغة وحدها ، دون أن نحسب حساباً لاحتمال فرضها على عناصر أخرى كانت لها لغتها الخاصة وصفاتها المتميزة ؛ وسنضطر كثيراً في سياق البحث إلى استعمال مثل هذه المصطلحات الثقافية ، على أن يكون مفهوماً دائماً أننا لا نعنى بها أقساماً جنسية متميزة ، وإنما نقصد الوجهة العامة مسافرين العرف الشائع في كثير من الكتابات ، وسنحاول في دراستنا لشعوب الأقطار العربية الأسيوية أن نوضح بقدر ما نستطيع العناصر المختلفة التي تتداخل في تكوين الجماعات التي وحدت بينها عوامل الثقافة ، مهتمين بالساميين والهاميين والعرب بوجه خاص .

ومن الضروري لتكوين صورة واضحة عن الموجات البشرية التي أثرت في سكان هذه الأقطار العربية المختلفة ، أن نذكر ما يشير إليه علماء المناخ من حدوث تذبذبات مناخية في بعض العهود التاريخية ، نتج عنها تعرض بعض هذه الأقاليم لفترات جفاف ساءت أثناءها الظروف الاقتصادية ، واضطربت خلالها الحالة السياسية ، وتبع هذا كله حركات بدأت من مناطق الجفاف ، وأثرت في الأقاليم المجاورة تأثيراً ملمس جانبه الجنسي في وصول تلك العناصر التي دفعت بها الصحراء العربية إلى مناطق الاستقرار في أراضي الهلال الخصيب . . وحدث مثل هذه الحركات لم يكن ليمتطلب تغييرات مناخية عنيفة ، إذ أن أقل جفاف في مناخ إقليم كبلاد العرب الذي لا تصيبه إلا كمية محدودة جداً من المطر لا بد وأن ينبض له قلب الجزيرة العربية ، فتنبعث منها هذه الموجات إلى حيث تطيب لها السكنى فيما يجاورها من الأقاليم . على أن هجرات سكان الأقاليم الصحراوية إلى الأراضي الزراعية لا يرتبط دائماً بعامل «الطرد» الذي

أشرنا إليه ، فهناك عامل « الجذب » القائم على التباين بين غنى الأراضي الزراعية وفققر الصحراء ، هذا التباين الذي يغري سكان البادية بالهجرة إلى مناطق الغنى بالطرق السلمية تارة وبالعنف تارة أخرى .

هذه الموجات فيما يغلب كانت تتخذ طريقها شمالاً شرقياً إلى أرض الجزيرة ، أو شمالاً غربياً إلى بلاد الشام ، وإن كان منها موجات تحركت إلى سهول العراق أولاً ثم عادت فانتقلت كلها أو بعضها إلى بلاد الشام . . . ومثل هذه الموجات لا يمكن حصرها جميعاً ، فيكفي أن نشير إلى تلك الهجرات التي ذهبت إلى بلاد الجزيرة ، وإلى هجرات الكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين وغيرهم من الهجرات التي تحركت إلى بلاد الشام ، وهجرات النبط والقبائل الاسماعيلية ، ثم هجرات العرب الجنوبيين الذين اضطروا إلى أن يتحركوا شمالاً ، نتيجة لتهدم (سد مأرب) فيما يروى المؤرخون أو لسوء الحالة الاقتصادية بسبب حدوث فترة من فترات الجفاف فيما يذهب أصحاب نظرية التذبذبات المناخية . . . وأخيراً تأتي الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية مع انتشار الإسلام وتوسع الفتوح الإسلامية، والتي استمرت قرناً طويلاً تغذي الأقطار العربية الإسلامية بعدد من القبائل العربية التي كان لها دون شك أثر ملموس في سكان بعض هذه الأقطار (١) .

تأثير الشعوب العربية بالمجموعات الجنسية المحيطة بها :

والآن ، وبعد هذه المقدمات العامة الضرورية ، ينبغي أن نحدد مركز شعوب الأقطار العربية الآسيوية من المؤثرات الجنسية المحيطة بها ، نظراً لما لمثل هذه المؤثرات من أهمية في إعطاء تلك الشعوب الصبغة الجنسية التي تتميز بها ، ولما لها من دخل كبير في إبراز نواحي الشبه والاختلاف بين العناصر التي تتكون منها هذه الشعوب . . . والملاحظ أن هذا الاقليم يتصل اتصالاً مباشراً

(١) يراجع في تفاصيل هذه الموجات الكتب الآتية (على سبيل المثال) :

A.C. Haddon = The Races of Man, Cambridge 1929, Pp. 96-97.

» » = Wanderings of People, Cambridge University Press, 1911.

,C.U. Ariens Kappers = An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam 1934, Pp. 47-48.

بقارتي أوروبا وأفريقيا ، ولهذا نجد أن المشاكل الاثنولوجية والانثروپولوجية له لا يمكن أن تفهم منفصلة عن الدراسة الجنسية لهاتين القارتين بحال من الأحوال . . . لكن هذا ليس معناه إغفال أهمية موقع هذه الأقطار بالنسبة لمجموعات جنسية أخرى ، تقع من جهة الى شمالها ، حيث العناصر الأرمنية التي سنهاها تؤثر في سكان بعض هذه الأقطار تأثيراً محسوساً ، وتقع من جهة أخرى الى شرقها وجنوبها الشرقي ، إذ لا يفصلها عن إيران مثلاً غير الخليج الفارسي وخليج عمان ، ولا يفصلها عن الهند الا البحر العربي ، ولهذا كان لبعض سكان شبه الجزيرة العربية صلات جنسية بهذه المجموعات التي تسكن تلك الأقاليم المجاورة ، تظهر آثارها في شكل الرأس تارة وفي مميزات الشعر ولون البشرة تارة أخرى ؛ ومن هنا ظهرت في سكان تلك الاقطار صفات تربطهم بسكان أوروبا الجنوبية ، وصفات تقرب من صفات العناصر الافريقية التي يجري العرف بتسميتها بالحاميين ، وهذا الى جانب مميزات أخرى تذكرنا ببعض مميزات (الدراقيدين) وغيرهم من سكان الهند ؛ وفيما يلي أهم المجموعات التي تأثر بها السكان الجنسي لهذه الاقطار :

١ - أما المجموعة الأولى فهي التي يطلق عليها علماء الأجناس اسم « جنس البحر المتوسط » ، أحد الفروع الرئيسية للمجموعة القوقازية أو الأجناس البيضاء ؛ وتتميز هذه المجموعة باستطالة الرأس أو توسطها ، وبالانف الضيق الذي يأخذ غالباً الشكل المستقيم ؛ وتميل البشرة الى السمرة كما تشهد سمرة الشعر مع تموج في شكله ، أما القامة فتوسطة أو دون المتوسطية بقليل . وإذا كانت مناطق توزيع هذه المجموعة أساساً هي حوض البحر المتوسط ، فإن هنالك أذرعاً منها امتدت الى الجنوب وأثرت في الاقاليم الواقعة على جانبي البحر الاحمر ، بل ووصلت - في رأى بعض الكتاب - الى أبعد من هذا جنوباً . . . وليس من شك في أن إحدى الطبقات الأساسية (ان لم تكن الطبقة الأساسية) في التكوين الجنسي لسكان الأقطار العربية الأسيوية ترجع الى مجموعة البحر المتوسط هذه ، بل ربما كان من المفيد أن نلفت النظر الى ما سبقت الإشارة اليه من أن الساميين والحاميين اصطلاحات لغوية ، والى أننا اذا أردنا ارجاع المتكلمين الاصليين بهاتين المجموعتين من اللغات الى أصولهم الجنسية فسيرتبون بعناصر البحر المتوسط أساساً ، لكن هذا لا ينفي وجود مميزات تفرق بين مجموعة وأخرى ؛ جاءت نتيجة للمؤثرات التي خضعت لها كل مجموعة في الوسط الذي اتخذته موطناً لها . . . ومن هنا جاء التمييز بينهما

واعتبارهما في رأى بعض الكتاب مجموعتين مستقلتين ، تغلب أولاهما في أفريقيا الشمالية ، وتوزع الاخرى في الجنوب الغربي لقارة آسيا بوجه خاص .

وما يستطيع الباحث في شعوب الأقطار العربية ، التي توضع بوجه عام ضمن ما اصطلاح على تسميته بالمجموعة السامية أن يغفل المؤثرات الحامية التي لابد وأن تكون بعض جهات شبه الجزيرة قد أصابها منها نصيب غير قليل ، فالجزء الجنوبي الغربي لبلاد العرب بوجه خاص كان دائماً قوى الاتصال بأفريقيا الحامية ، وما كان في الامكان تبعاً لهذا أن يخلص من نتائج هذا الاتصال ، بل إن من الكتاب من يذهب الى أن المميزات التي أصبح الحاميون يتميزون بها إنما اكتسبت في بعض الجهات الجنوبية للجزيرة العربية ^(١) ، كما يذهب كاتب مثل الاستاذ (كيث) الى أن تلك العناصر الحامية كانت في وقت ما أوسع انتشاراً في البلاد العربية ، ثم جاءت مؤثرات قوقازية أخرى من الشمال ، دفعتها أمامها وضيق دائرة انتشارها ، ومثلت كثيراً من صفاتها ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تقضى عليها قضاء تاماً ، إذ سنرى تلك الصفات الحامية - سيما في شكل الشعر ولون البشرة ومميزات الوجه - واضحة في سكان الاقليم الجنوبي ، وضوحاً يصعب معه في بعض الأحيان التفريق بينهم وبين عناصر من المجموعة الحامية الافريقية كالحادندوه وبني عامر مثلاً ^(٢) . . . وإذا كنا قد رأينا أن التفريق بين الشماليين والجنوبيين من سكان الجزيرة العربية قائم على صفات ربما لا يضعها كثير من علماء الأجناس في المنزلة الأولى من الأهمية بين أسس التقسيمات الجنسية ، فما ينبغي أن ننسى ما سبقت الإشارة اليه من أن

(١) لا يزال أمر العناصر العربية التي تظهر فيها بعض المؤثرات الحامية وصلاتها بالعناصر التي تظهر فيها نفس المميزات موضوع مناقشة واختلاف بين علماء الأجناس ، وقد حدد (برترام توماس) الاحتمالات الممكنة في هذه الناحية عند ما تساءل عن حقيقة الوضع الجنسي لتلك العناصر التي صادفته في رحلته بجنوب بلاد العرب :

“ Who and whence are these tribes ? - Indigenous ? Of African origin ? Or have they a common origin with African tribes ? Or are none of these hypotheses tenable ? ”

Bertram Thomas = Arabia Felix, London 1932, P. 302.

(٢) راجع في الكتاب السابق الصور رقم ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ وقارن بينها وبين صور تمثل العناصر الحامية الافريقية .

الحاميين والساميين مجموعتان فرعيتان من مجموعة جنسية رئيسية هي مجموعة البحر المتوسط لها صفاتها العامة المشتركة.

ولو صح مثل هذا الوضع للتاريخ الجنسي لبلاد العرب لكان سكان الجنوب من الحاميين أقدم ، ولكانت الصبغة السامية التي تسود شبه الجزيرة الآن أحدث نسبياً . والغريب أن ما يذهب اليه مؤرخو العرب ونسابتهم يكاد يكون متفقاً مع هذا الحد كبير ؛ فالعرب العاربة (عرب الجنوب) هم في نظرهم العرب الحقيقيون الأصليون ، أما العرب المستعربة (عرب الشمال) فأقل تأصلاً في العروبة من الجنوبيين .

٢ - وهنالك المجموعة الأرمنية ، إحدى فروع المجموعة القوقازية أيضاً ، وهذه عناصر تتميز بوجه عام بالرأس العريض الذي يتبطط فيه القزالي (مؤخرة الرأس) ، كما تتميز بالأنف المرتفع البارز الذي يتحدب في شكله فيأخذ مظهراً خاصاً صبغ العناصر الأرمنية مميزة أنفية معروفة . ولكنها مميزة يشترك مع الأرمن فيها عناصر أخرى من الجماعات التي تتكلم اللغات السامية . والواقع أنه ليس هنالك أساس يمكن أن نعتمد عليه في التفريق بين الأنف الأرمني وأنوف تلك الجماعات الأخرى ، إذ أن بروز الأنف وتحدبه صفتان شائعتان بين العرب لا يربطهما بعض السكتاب - كما يربطون ظاهرة استدارة الرأس - بمؤثرات أرمنية ، وإنما ينظرون اليهما كأنهما صفتان أصليتان ، ظهرتتا مستقلةتين في العرب كما ظهرتتا في غيرهم من السلالات الجنسية التي تسكن الجنوب الغربي من قارة آسيا .

هذه المجموعة الأرمنية، توزع غالباً في الاقليم الجبلي الذي يطوق الأقطار العربية الأسيوية من الشمال ، لكن لم تسلم تلك الأقطار نفسها من الأثر الأرمني الذي يبدو بارزاً في كثير من الجماجم القديمة التي عثر عليها الأركيولوجيون في أرض الجزيرة وبلاد الشام . وهذا أمر طبيعي جداً إذا أخذنا في الحسبان العوامل الجغرافية الملائمة ، وتذكرنا التباين في الثروة بين أراضي الهلال الخصيب في غناها ووفرة إنتاجها ، وبين النطاق الجبلي الذي يطوقها من الشمال في جده وفقره . مثل هذا التباين كان من شأنه أن يغري العناصر الأرمنية الجبلية بالهبوط الى تلك الاقاليم السهلة الغنية ، كما كان يغري سكان الصحراء في فترات الجذب والجفاف ، حتى كاد التاريخ القديم لأراضي الهلال الخصيب يكون صراعاً مستمراً على السيادة بين سكان البلاد وغيرهم وكان لابد من أن تترك هذه الظاهرة أثراً واضحاً للمميزات الأرمنية في سكان أراضي هذا

الهلال ، ولما كانت امبراطورية كامبراطورية الحيثيين مثلاً قد قامت على أكتاف العناصر الأرمنية ونشأت أصلاً في أراضيهم الجبلية ، ثم بسطت نفوذها ونشرت سلطانها جنوباً ، فإن أثر العناصر الأرمنية إنما كان بارزاً في الجهات الشمالية من الأقطار العربية الآسيوية ، يأخذ في الضعف كلما تحركنا ناحية الجنوب .

ولا شك في أن مرجع هذا إنما كان الى حكم الجوار أولاً ، لملاصقة شمال الأقطار العربية الآسيوية لموطن العناصر الأرمنية وما يؤدي اليه هذا التلاصق من تسرب هذه العناصر الأرمنية بين سكان أراضى الهلال الخصيب ، تسرباً يضعف أثره كلما بعدنا عن موطن هذه العناصر بطبيعة الحال . وهذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن المنطقة الصحراوية المجاورة الى الجنوب لم تكن لتغرى سكان الجبال بالانتقال اليها ، بل إنها أكثر من ذلك كانت تنبض في فترات الجفاف فتبعث هي بموجات متعددة الى الشمال ، كانت تضطر العناصر الأرمنية الى الانزواء في مناطق العزلة والتطرف ، في جبال الأقطار العربية أو في أركانها ، وهي بهذا تضيق الدائرة التي وصل اليها الأثر الأرمني ، وتوسع دائرة الأراضى التي تأثرت بالموجات السامية ، التي بدأت من مكان ما بالجزيرة العربية ، وأخذت طرقاً مختلفة إلى أراضى دجلة والفرات وبلاد الشام . على أننا وإن ضيقنا الدائرة التي وصل اليها الأثر الأرمني ، فما ينفي هذا أن توزيع الرؤوس العريضة قد تجاوز مناطق الشمال ووصل الى الأطراف الجنوبية للجزيرة العربية ، سواء في عمان وما يجاورها غرباً ، أو اليمن وما يتصل بها من أراضى حضرموت . . . وإذا كان من الصعب أن نقطع باستحالة إمكان حدوث ظاهرة استدارة الرؤوس متطورة تطوراً محلياً مستقلاً ، فالراجح أن هذه الظاهرة قد حدثت نتيجة حركة لأصحاب الرؤوس العريضة ، خرجت من منطقة توزيعهم في الشمال ، واتجهت الى الجنوب . . . ولقد أثبتت دراسة المقاييس التي أخذت على الرؤوس العريضة في المناطق المختلفة في جنوب بلاد العرب أن هنالك أثراً أرمنياً ، مؤكداً في إقليم عمان ، لكن صلة الرؤوس العريضة في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة بالموثرات الأرمنية أمر لا يمكن القطع به تماماً الآن . (١)

(١) راجع هذه المقاسات مفصلة في دراسة الأستاذ (كيث) وزميله « للمميزات الجنسية للعرب الجنوبيين » في الجزء الملحق بكتاب (برترام توماس) الذي سبقت الإشارة اليه من صفحة (٣٠١ إلى صفحة ٣٣٣) .

والظاهر أن هذه العناصر الأرمنية قد أخذت طريقها الى الأطراف الجنوبية عبر سهول دجلة والفرات ، ثم بجذء الخليج الفارسي الى اقليم عمان ، باعتبار أن هذا الطريق أسهل بكثير من أن تأخذ تلك العناصر طريقها قاطعة الجزيرة العربية في وسطها من الشمال الى الجنوب ، سيما وأنها لم تترك آثاراً جنسية على طول هذا الطريق يمكن أن يعتمد عليها في ترجيح هذا الرأي على الرأي الاول^(١) . . . والكتاب يربطون اندفاع هذه الموجات الأرمنية الى الجنوب بفترات كانت الجزيرة العربية فيها أكثر مطراً وأغنى نباتاً ، وإذا فقد كان فيها ما يغري سكان الجبال في الشمال بأن يتحركوا جنوباً . . . لكن فترات الجفاف التي تبعت هذا أوقفت استمرار هذه الموجات الأرمنية الى الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، من جهة لأنه لم يعد هنالك ما يغري هذه العناصر الأرمنية بالهجرة ، ومن جهة أخرى لأن الاضطراب الاقتصادي الذي تبع حالة الجفاف هذه قد دفع الى الشمال بموجات من قلب الجزيرة العربية ، كانت في حد ذاتها عاملاً لم يمكن الهجرات الأرمنية من أن تستمر في حركتها الى الجنوب .

ويهمنا - قبل الكلام على باقى العناصر التي تدخل في تكوين شعوب الأقطار العربية الآسيوية - أن نشير الى أن عنصر البحر المتوسط والعنصر الأرمنى هما في الواقع العنصران الأساسيان في السكان الجنسي لهذه الشعوب ، وإن اختلفت الأهمية النسبية لكل منهما من منطقة الى أخرى . . . وهذان العنصران إن وجدا في حالة نقية أحياناً فكثيراً ما يبدو الاختلاط بينهما قوياً ، مع التفاوت في درجة الاختلاط بحسب ما يوحى به الموقع الجغرافي من جهة والعوامل التاريخية من جهة أخرى . . . ويرجع علماء الأجناس ما يعثر عليه الأركيولوجيون في غرب آسيا من جماجم قديمة الى أحد هذين العنصرين ، ولو أن الخلاف لا يزال قائماً بين هؤلاء العلماء على ترجيح أسبقية عنصر منهما في سكنى هذه الأقاليم على العنصر الآخر: فمنهم من

(١) لاينفى الأستاذ (بكستون) أن في الامكان أن يكون طريق العناصر عريضة الرموس الى جنوب بلاد العرب قد سار قاطعاً أراضي الجزيرة ومتتبّعاً ساحل الخليج الفارسي ، لكنه مع ذلك يذهب الى أننا ما دمنا قد رأينا هذه العناصر في الأزمنة القديمة تضغط على مصر وشمال إفريقيا فليس هنالك ما يمنع من أن تكون قد ضغطت كذلك على شمال بلاد العرب ، وقطعت الجزيرة العربية من الشمال الى الجنوب ، حتى ولو لم نلمس في عرب كالشماليين أثراً لصفات هذه

العناصر . راجع L. H. Dudley Buxton = The Peoples of Asia, London 1935. p. 106.

يذهب الى أن العناصر الأرمنية هي العناصر القديمة ، أما عناصر البحر المتوسط فقد وصلت متأخرة نسبيا واختلطت بمرور الزمن بالأرمنيين وعدلت في بعض صفاتهم .. فإذا صححت هذه النظرية ، فلا شك في أن هذه العملية قد تمت في أزمان بعيدة جدا ، إذ أن العنصرين - فيما يظهر - كانا ممثلين بوضوح في كثير من أجزاء الأناضول في العصر البرونزي ، كما أن أقدم الجماجم التي اكتشفت في قبرص كانت لأناس يرجحون بالتأكيـد الى هذه السلالات الخليطة المكونة من عناصر البحر المتوسط ومن العناصر الأرمنية ، وكذلك يمثل العنصران في منطقة (كرش) بالعراق منذ أقدم العصور .. على أنه اذا كان لمثل هذا الجدل أساس فيما يختص بدراسة التاريخ الجنسي لبلاد الأناضول ، فالأدلة التي بين أيدينا تجعلنا نميل الى ترجيح أقدمية عناصر البحر المتوسط في سكنى معظم الجهات الأخرى في غرب آسيا .. وأيا كانت أهمية الموجات التي وصلت الى هذه الأقطار في الفترات التي تلت فجر تاريخ كيانها الجنسي ، فالظاهر أن السكان القدماء في أساسهم لم يكونوا مختلفين اختلافا جوهريا في مميزاتهم الجنسية عن السكان الحاليين لهذه الأقطار .

٣ - ثم يبقى أن نشير الى منطقة العناصر الزنجية في الجنوب ، لنبين مدى تأثيرها من الناحية الجنسية في شعوب الأقطار العربية الآسيوية المجاورة لها .. إن الزوج موزعون الآن توزيعا عاما في النصف الجنوبي لافريقية وفي الاطراف الجنوبية الشرقية لآسيا ، لكن يظهر أن هاتين المنطقتين كانتا متصلتين في العصور القديمة ، إذ كان إقليم الزوج يكون شبه نطاق يطوق المحيط الهندي من الشمال ، وكانت سواحل بلاد العرب الجنوبية والجنوبية الشرقية تدخل قديما ضمن هذه المنطقة .. ثم كان أن امتدت أذرع جنسية مختلفة من الشمال ، فقطعت استمرار اتصال الاقليم الزنجي وأحلت محل العناصر الزنجية القديمة عناصر أخرى ، ففي الشرق مثلا انتشرت السلالات المغولية ، وأجلت الزوج عن بعض مناطق سكنهم ، واختلطوا بهم في بعض الجهات ، وفي الغرب امتدت أذرع من السلالات القوقازية ، فانتشرت عناصر البحر المتوسط جنوبا ، ووصلت المؤثرات الأرمنية الى ساحل الخليج الفارسي ، كما سبقت الإشارة .

لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الانتشار الزنجي القديم لم يترك له أثرا في الأطراف الجنوبية للجزيرة العربية ، إذ أن الدراسة الجنسية العميقة للسكان الحاليين في تلك المناطق قد أثبتت وجود مؤثرات لهذا الانتشار القديم ، لا تزال واضحة وضوحا يمكن أن يربطها

بالجماعات المتأثرة بالزنوج خارج البلاد العربية . وما يقف وصول المؤثرات الزنجية عند حد الأقاليم الجنوبية باعتبارها أقرب أجزاء شبه الجزيرة الى مواطن تلك المؤثرات ، بل يتعداها الى الشمال تاركا أثرا لا يمكن إغفاله في الجماعات العربية الشمالية ، حتى لنجد في أشد تلك المجموعات نقاوة بعض تلك المميزات الزنجية ، وان كانت بالطبع مخففة الى حد كبير . (١)

على أن الأثر الزنجي في جنوب الجزيرة العربية (وفي بعض جهاتها الوسطى والشمالية) لا يقتصر على ما تركته تلك البقايا للانتشار الزنجي القديم ، بل ان صلات هذا الجزء من البلاد العربية بافريقية الزنجية كان اتصالا وثيقا في العصور التاريخية المتأخرة ، سواء عن طريق تجارة الرقيق التي كانت تلقي سوقا رائجة في البلاد العربية ، أو عن طريق الاتصال المستمر بين تجار العرب وسكان شرقي افريقية بوجه خاص .

هذه هي أهم المؤثرات الجنسية التي يمكن أن يفهم على ضوءها التكوين الجنسي للشعوب العربية الآسيوية ، لكن لامناص من أن نشير الى مؤثرات أخرى تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية ، كي نستكمل بهذا الحقائق المتصلة بدراسة السكان الجنسي لتلك الشعوب .

١ - أما في الشمال فتوجد جيوب جنسية تشذ عن العناصر الأرمينية التي تجاورها شذوذاً واضحاً ، من حيث شكل الرأس ، ومن حيث وضوح الشقرة في لون البشرة ، والاصفرار في لون الشعر ، والزرقة في لون العين . هذه هي جماعات الأكراد ، وهي فيما يظهر أثر لموجة ترتبط بالأصول التي يرجع اليها السلالات الشمالية (النوردية) ، تلك الأصول التي لا يبعد أنها خرجت من منطقة ليست بعيدة عن الأقطار التي ندرسها ، والتي يغاب أن تكون إحدى موجاتها قد

(١) يشير الأستاذ (كيث) في دراسته لمجموعة الصور الملحقه بكتاب (هنرى فيلد) عن سكان العراق الأوسط الى ان بعض هذه الصور يبدى ملامح زنجية واضحة ثم يعلق على هذا بما يأتي :

" Among these Negroid features which may be counted normal in Arabs are the full, rather verted lips, shortness and width of nose, certain blanks in the bearded areas of the face . . . , large, luscious, gazelle-like eyes, a dark brown complexion and a tendency for the hair to grow in ringlets. Often the features of the more Negroid Arabs are derivatives of Dravidian India rather than inheritances of Hamitic Africa. Although the Arab of today is sharply differentiated from the Negro of Africa, yet there must have been a time when both were represented by a single ancestral stock; in no other way can the prevalence of certain Negroid features be accounted for in the natives of Arabia.

راجع مقدمة كتاب : Henry Field = Arabs of Central Iraq, Chicago 1935, P. 14.

اتجهت الى الجنوب والغرب ، على حين أن غالبية موجاتها الأخرى كان اتجاهها الى الشمال ، ومن المحتمل أن يكون الـ (Kardouchoi) والـ (Gordyaens) الذين وردت الإشارة اليهم في كتابة المؤرخين القدماء ، هم الأجداد المباثرون للأكراد الحاليين ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق متى وصلت القبائل الكردية الى مواطنها التي تسكنها الآن . . . ومهما يكن من أمر تاريخ الأكراد القديم وهجراتهم الأولى ، فهم يتركزون حاليا في إقليم كردستان الذي يقع جزء منه في دائرة الأقطار العربية الأسيوية .

على أن وجود هذه المجموعة الجنسية الشاذة وسط غالبية من العناصر الجنسية التي تختلف عنها تماما في مميزاتها الجثمانية ، كان من شأنه أن يجعلها تتأثر بتلك العناصر الغالبة ، وكان لابد من أن يؤدي هذا الى تعديل في صفاتها ، ومن هنا تميز سكان كردستان بالاختلافات الجثمانية المحلية نتيجة لاختلاف العناصر التي تحتك بهم ، مع التسليم بوجود شيء من التجانس يربط بين سكان كردستان جميعا : فقد احتفظ الأكراد في مجموعهم بالقامة الطويلة والرؤوس الطويلة ، مع ميل الى الاستدارة حيث يوجد اختلاط بالأرمن والآتراك ، وحيث استقروا في شمال أرض الجزيرة فتأثروا بالعناصر العريضة الرؤوس التي تسكن الجزء الشمالي من العراق . . . لكن الغريب أن صفات الوجه عند الأكراد - من حيث وضوح الارتفاع والضييق فيه - لم تعدل تعدلا يذكر ، رغم الاختلاط بعناصر تتميز باتساع الوجه وقصره ، أي أن صفات الوجه أكثر ثباتا من مميزات الرأس في هذه المجموعة بالذات .

ب - هذا في الشمال ، أما في الجنوب فلا بد لنا من أن نتذكر أن الشعوب العربية التي تسكن الجهات الساحلية كانت دائما شعوبا بحرية ، تجاوزت في علاقاتها التجارية سواحل افريقية ، ووصلت الى إقليم الملايو وجزائر الهند الشرقية ، حيث كان للعرب جاليات ليست صغيرة في كثير من المدن ، انتشرت عن طريقها الثقافة الاسلامية بين سكان هذه الجهات ؛ لكن أثر هذه الجاليات العربية في سكان الملايو كان أثرا معدوما تقريبا من الناحية الجنسية ، نظرا لصغر هذه الجاليات وقلة عددها بالقياس الى المجموعة الجنسية الغالبة في تلك الأقاليم . . . وعلى خلاف هذا كان أثر سكان الملايو في تلك الجاليات العربية ضئيلا في الناحية الثقافية ، قويا في الصفات الجثمانية ، فقد تزوج كثير من العرب بنساء من أهل الملايو اصطحبوهن وأولادهن الى بلاد العرب عند عودتهم اليها ، فتكون عن هذا الطريق لون من التهجين ، أظهر بعض الصفات

المغولية معدلة في سكان بعض الجهات الساحلية الجنوبية للبلاد العربية .. وعلى حين أنه قد ظلت العناصر الأفريقية في جنوب بلاد العرب متميزة، لا تتسرب دماؤها إلى العرب تسرباً يقبله المجتمع بسهولة ويقره ، تسربت دماء عناصر الملايو ووضح أثرها في جهات كثيرة في إقاييم الساحل الجنوبي ، سيما في الطبقات الأرستقراطية وفي سكان وادي حضرموت بوجه خاص .

هذه صورة سريعة لأهم العناصر التي تدخل في التكوين الجنسي للشعوب العربية الأسيوية ، يتضح منها امتداد أثر عناصر البحر المتوسط امتداداً لا يصل إليه أثر العناصر الباقية ، وإن استحال علينا أن ننفي أهمية المؤثرات الجنسية الأخرى ، سيما المؤثرات الأرمنية التي صمدت أمام الموجات المختلفة ، وظلت محتفظة بشخصيتها الجنسية و ببعض مميزاتها الثقافية ، وبذلك طبعت بطابع تتميز به في المحيط الجنسي الذي تقع فيه الآن . وعلى ضوء هذه الصورة السريعة يمكننا أن نقسم شعوب البلاد العربية الأسيوية تقسيماً عاماً إلى ثلاث مجموعات :

الأولى . تمتاز بالبساطة في تكوينها الجنسي ، تسكن أراضي نجد ، ومناطق الصحاري في بلاد العرب ، وامتداد هذا الإقليم الصحراوي شمالاً بين أرض الجزيرة وبلاد الشام . هذه المجموعة احتفظت بحكم الظروف الجغرافية المحيطة بها بكثير من صفات سلالات البحر المتوسط التي أشرنا إليها ، دون أن يصل إليها تأثير قوى ، لامن العناصر الأرمنية وغيرها من الشمال ، ولا من المؤثرات الجنوبية ، اللهم إلا بعض مؤثرات زنجية مخففة وصلتها عن طريق الرقيق الذين يملكهم الأثرياء من العرب ، وهي مؤثرات بسيطة محدودة يمكن ألا يهتم بها كثيراً .

الثانية . مجموعة يشتد تعقدها الجنسي ، إذ يتداخل في تكوينها عناصر جنسية متعددة ، نتيجة لموقعها بالنسبة للمجموعات الجنسية المحيطة بها . وهذه المجموعة ، أو المجموعات ، توزع على هوامش الأقطار العربية الأسيوية ، يدخل فيها كثير من سكان لبنان وشمال العراق من ناحية ، كما يدخل فيها كثير من سكان اليمن والامارات التي تقع في الجنوب والجنوب الشرقي من ناحية أخرى . لكن طبيعة التعقد تختلف بعض الاختلاف في الشمال عنها في الجنوب ؛ ذلك لأن الصراع الجنسي في الشمال كان بين عناصر تكاد تكون متكافئة ، ومن هنا لم تستطع عناصر البحر المتوسط مثلاً (وقد رأيناها غالباً في المناطق الشمالية) أن تقضي على شخصية عناصر كالعناصر الأرمنية ، بل كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تدفعها دفعاً يضيق مناطق انتشارها ، لكنها مع ذلك حافظت على طابعها الجنسي في تلك الأقاليم التي ظلت تسكنها إلى

الآن ، بل إن أمر محافظتها على طابعها الخاص قد تجاوز المميزات الجثمانية إلى بعض خصائص الثقافة ، فعلى الرغم من أن اللغة العربية (كفرع من فروع اللغات السامية) قد فرضت على كل سكان تلك الأقطار تقريباً بغض النظر عن اختلافاتهم الجثمانية ، فإن الدين الاسلامي لم ينجح هذا النجاح الذي نجحته اللغة العربية في انتشارها ، إذ استطاعت طوائف كثيرة أن تحتفظ بعقائدها الدينية كاملة أو معدلة بعض التعديل ، وأصبح من الظواهر البارزة وجود شبه ارتباط بين أصحاب الرؤوس العربية (المنتمين الى الجماعات الأرمنية) وبين الطوائف غير الاسلامية سواء في العراق أو في لبنان .

هذا في الشمال ، أما في الجنوب فالحال يختلف عن هذا اختلافاً واضحاً ، إذ أننا هنا أمام عناصر كثيرة مختلطة ، لكن ليس فيها ما يمثل قوة العناصر الأرمنية في الشمال ، ولهذا نجد أثر البحر المتوسط بارزاً لا يضعف إلا حيث تفضل سلاسل هذا الجنس أن تترك المجال للعناصر الأخرى ، عند ما تقل صلاحية المنطقة للسكنى ، كما هو الحال في استئثار عناصر البحر المتوسط بسكنى إقليم الهضبة في اليمن ، تاركة إقليم السهل الساحلي بجزائره ورطوبته لسكنى الجماعات الأخرى .

الثالثة : مجموعة تسكن مناطق الانتقال بين المجموعتين ، الأولى والثانية ، واضحة تمام الوضوح عند ما تنتقل من إقليم الصحارى متحركين شمالاً ناحية سهول أراضى الهلال الخصيب ، فالجماعات التي تسكن على حافة الصحراء - سواء في العراق أو في سوريا - تعدل فيها المميزات الأرمنية وصفات عناصر البحر المتوسط لحد كبير ، فالرؤوس متوسطة تقل فيها الرؤوس الشديدة الاستدارة ، والأنوف تعدل بعض التعديل ، وكذلك الحال في بعض المميزات الأخرى لكن هذا لا ينفي وجود بعض عناصر من سكان هذه المنطقة الانتقالية يمكن أن تربطها بسهولة بمجموعة البحر المتوسط أو المجموعة الأرمنية ، لأن الاختلاط بين الجماعات الجنسية المختلفة لا يؤدي حتماً إلى وجود عناصر تتوسط في تكوينها الجنسي بين تلك الجماعات .

الوضع الجنسي لشعوب الأقطار العربية المختلفة

والآن وقد مهدنا الأذهان بما فيه الكفاية لفهم التكوين الجنسي لكل وحدة من وحدات الشعوب العربية الأسيوية ، يمكن أن ندخل في تفاصيل الدراسة الجنسية لمختلف هذه الأقطار .

أولاً - العراق :

إن سكان العراق الأصليين يمكن أن نربطهم - من حيث صفاتهم الجثمانية - بالعناصر الطويلة الروس التي كانت تسكن مصر فيما قبل الأسرات ، أى أن العنصر الذى كان سائداً فى الزمن القديم هو من سلالات البحر المتوسط ، تسربت إليه - فى المناطق الشمالية خاصة - مؤثرات أرمنية ، وكانت تغذيه دائماً هجرات من الصحراء العربية لا تختلف فى صفاتها الجنسية الأساسية عن سكان أرض الجزيرة الأصليين .^(١) لهذا يمكن أن نقرر إجمالاً أن سكان العراق الحاليين فى جملتهم لا يختلفون اختلافاً جوهرياً عن سكانه القدماء ، إذ أنه بعد أن أخذ الاقليم طابعه الجنسى ، لم تغير الموجات الحديثة التى وصلت إلى أجزائه المختلفة المميزات الجثمانية للسكان تغييراً يذكر ، من جهة لأن العناصر التى أتت بها هذه الموجات لم يكن معظمها يختلف فى كيانه الجنسى عن العناصر القديمة التى اختلطت بها ، ومن جهة أخرى لأنها بعد الاستقرار الجنسى للعراق لم تسكن من الكثرة العددية بحيث تستطيع أن تفرض مميزات الجثمانية على السكان الأصليين ، بل على العكس من ذلك استطاعت العناصر الأصلية أن تمثلها وتضمها ، وإن كان هذا لم يمنع من أن تظل بعض تلك الجماعات محتفظة بشخصيتها الجنسية كما أثبت هذا الأستاذ

(١) ان البقايا البشرية التى وجدت بها بعثة جامعة أكسفورد بالاشتراك مع Field Museum بشيكاغو ترجع غالبية الجماجم فيها الى سلالة البحر المتوسط ، وهى جماجم تنخفض النسبة الرأسية فيها إلى أقل من ٧٠ فى معظم الاحيان ، على أن هذا لم يمنع من وجود عنصر ثان يرتبط بالعناصر الأرمنية فى المقابر التى اكتشفت حول (كش) فى العراق الأوسط . هذان العنصران فيما يظهر كانا يعيشان جنباً الى جنب فى العهد الذى ترجع اليه هذه الجماجم ، والذى يحتمل أن يكون معاصراً لآوائل عهد الأسرات فى مصر فيما يرى (لانجدن) . والخلاف كبير بين العلماء على أصل السومريين ، منهم من يربطهم بعناصر البحر المتوسط ، ومنهم من يربطهم بعناصر أرمنية ، وفريق ثالث يذهب الى أن السومريين اسم لوحدة حضارية أكثر مما هو اسم لوحدة جنسية . راجع كتاب الأستاذ (بكستون) عن شعوب آسيا الذى سبقته الإشارة اليه من صفحة ١٠١ الى صفحة ١٠٤ .

(هنرى فيلد) فى دراسته لبعض القبائل العربية التى تنزل الآن فى أرض الجزيرة بين دجلة والفرات .

على أن ذلك لاينفى بالطبع وجود فوارق إقليمية بين سكان العراق يمكن أن تفهم على ضوء موقع أجزاء العراق المختلفة بالنسبة لمواطن العناصر الأرمنية ، ومدى ما وصل إليه أثر هذه العناصر فى انتشارها ناحية الجنوب ، وفى الامكان أن تقسم العراق على هذا الأساس إلى إقليمين جنسيين متميزين :

١ - الإقليم الشمالى : الذى تأثر بالعناصر الأرمنية تأثراً واضحاً ، تلك العناصر التى تبرز صفاتها بشكل ملموس بين الآثوريين (الآشوريين) الذين يسكنون فى شمال العراق ، والذين يقربون من الأرمن فى شكل الرأس وفى كثير من الصفات الجثمانية الأخرى . هذا من الناحية الجنسية ، أما من الناحية اللغوية فالآشوريون شعب سامى ، وإن كان الآشوريون القدماء أبعد ما يكونون عن الشكل المثالى للساميين كما نعرفه فى بدو الصحراء مثلاً ، إذ هم يقربون من صفات الأرمن لحد كبير ، لكن على حين أن الأرمن قد ظلوا يتكلمون لغة غير سامية ، فرضت اللغة السامية على الآثوريين (الآشوريين) فرضاً ، بغض النظر عن الصفات الجنسية لهذه الجماعات .

واقد أثبتت دراسة الأستاذ (كابرز) وجود شبه فى الصفات الجثمانية بين عرب الموصل المسيحيين وبين الأرمن ، يشبهه الصلات التى تربط بين الأرمن والآشوريين ، يبدو واضحاً جداً فى مقارنة مميزات الرأس والنسبة الرأسية بين الأرمن وهؤلاء العرب المسيحيين . وإذا قسمية هذه العناصر عرباً ، إنما هى تسمية تقوم على أساس من اللغة التى يمكن أن تكون قد فرضت على هذه العناصر كما فرضت على غيرها دون اتفاق فى المميزات الجنسية . . . وربما كان مرجع هذا الارتباط فى الصفات الجثمانية بين عرب الموصل المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وبين العناصر الآشورية الكلدانية ، إنما هو الى العامل الدينى الذى يلعب دوراً كبيراً فى اختيار الأزواج بين الشعوب الإسلامية ، إذ أن التزاوج بين هؤلاء المسيحيين فى الموصل وبين المسلمين ممتنع ، على حين أنه لا تقوم هنالك صعوبة فى زواج هؤلاء المسيحيين بغيرهم من أهل الطوائف الدينية الأخرى .

٢ - الأقليم الأوسط والجنوبي ^(١) الذي يسوده شيء كثير من الانسجام الجنسي ، والذي يقل الأثر الأرمني فيه قلة واضحة ، وإذا فهذا الأقليم الثاني هو الذي يقرب سكانه من سكان الأقليم الصحراوي المجاور له ، وإن لم يصل في النقاوة إلى ما يصل إليه هذا الأقليم الأخير ، لأن هذه الأراضي السهلة من أراضي الجزيرة كانت باستمرار مناطق يطعم فيها سكان المناطق الجبلية التي تقع في الشمال ، ولذلك لانعدم في الوسط والجنوب وجود مجموعة قليلة من أصحاب الروس العريضة ، كما نلاحظ أن القامة في جملتها أطول بين سكان العراق منها بين البدو من سكان الصحراء ، وهي بين سكان وسط العراق أقصر نسبياً منها بين سكان الجبال في الشمال . ^(٢)

ولابد لنا ونحن بصدد الكلام على العناصر الجنسية لشعب العراق من أن نشير إلى جماعات الأكراد ، الذين لا يقتصر توزيعهم على العراق وإنما يتجاوزونه إلى تركيا وسوريا وإيران . ولقد سبقت الإشارة إلى أن هؤلاء الأكراد يختلفون في شكل الرأس وفي كثير من المميزات الجنسية الأخرى عن الجماعات التي تحيط بهم ، وإن لم يساهوا بالطبع من أن يتأثروا بها لحد محدود ، مع ملاحظة أن تأثير الأكراد في العراق بالعناصر التي يعيشون بينها هو من الضالة بحيث يمكن إغفاله إغفالاً تاماً ، والمرجح أن عناصر الأكراد الفاتحة البشرية قد أتت من الشمال ، في موجات كان لها تأثيرها في الجنوب الغربي من قارة آسيا ، وقد استطاعت أن تحتفظ - إلى جانب احتفاظها بمميزات الجثمانية - بطابعها الثقافي ، إذ أن الأكراد لا يتكلمون لغة سامية بل إن لغتهم لغة آرية تنقسم إلى عدة لهجات .

(١) يدرس أهل الكويت من الناحية الجنسية مرتبطين بسكان جنوب العراق أكثر من ارتباطهم بجيرانهم من سكان الأقطار العربية الأخرى ، ويخلص الأستاذ (كرن) الفروق بين الكويتيين وبين سكان هضبة اليمن - الذين سبغهم يثاؤون سلالات نقية لحد ما من سلالات البحر المتوسط - تلخيصاً نكتفي منه بالنقطتين الآتيتين : الأولى أن الروس وإن اتفقت في صغر الحجم فإنها بين الكويتيين أقصر وأعرض منها بين اليمنيين ، ولهذا ترتفع النسبة الرأسية بينهم . والثانية أن الشعب - مرفيهم أكثر استقامة والبشرة أغنى والأف أضخم . راجع كتاب :

Carleton Stevens Coon = The Races of Europe, New York 1939, P. 413.

(٢) راجع المقارنات في مقدمة كتاب الأستاذ (هنري فيلد) عن عرب العراق الأوسط

من ص ٢٥ إلى ص ٣٧ .

ثانياً - سوريا ولبنان :

إن الدراسة التفصيلية لسكان هذه المنطقة تؤيد تماماً ما أشرنا إليه من مقدمات ، فنحن أمام فوارق أساسية بين الجماعات التي تسكن جهات سوريا العظمى المختلفة ، بحيث يمكن أن نميز فيها ثلاثة أقسام جنسية فرعية :

١ - سكان الجبال ، ويدخل فيهم (العلويون) و (المتاولة) و (سكان البقاع) ، وهؤلاء جميعاً يرتبطون ارتباطاً واضحاً بالجماعات العريضة الرؤوس . والملاحظ في الجماعات التي تسكن الجبال أن أكثرها تطرفاً في استعراض الرأس هي جماعات المتاولة ، وأن سكان البقاع ووسط من الناحية الجنسية - كما هم وسط من ناحية الموقع الجغرافي - بين المتاولة في الجنوب والعلويين في الشمال . (١)

٢ - بدو الصحراء السورية من الموالي و (العقيدات) و (الرؤكّه) ، وهؤلاء جميعاً يمكن ربطهم بسلالات البحر المتوسط بصفاتها المعروفة . . . وإذا كنا قد وضعنا كل الجماعات التي تسكن الصحراء في مجموعة جنسية واحدة ، فما ينبغي هذا وجود بعض الفوارق في المميزات الجثمانية التي تتصف بها ، فالدراسة الأنثروبولوجية المفصلة لهذه الجماعات الصحراوية تبرز اختلافات بين الموالي والعقيدات من جهة ، وبين الرؤكّه من جهة أخرى ، إذ أن الرؤكّه أكثر استطالة في الرأس ، وأشد ضيقاً في الوجه ، كما تقصر القامة بينهم عن قامة الموالي والعقيدات . ، لكن الفوارق الجنسية بين هذه الجماعات أقل بكثير من الفوارق التي بينها كمجموعة وبين الجماعات الأخرى التي تسكن الجبال وحافة الصحراء .

(١) يشير الدكتور (شانكلن) - الذي قام بأبحاث أنثروبولوجية كثيرة على الجماعات المختلفة التي تسكن الشام - إلى أن الجماعات عريضة الرؤوس لا يمكن إرجاعها إلى العناصر الأرمنية بالوصف التقليدي المعروف ، وينصح بضرورة التريث إلى أن تتم الدراسة التفصيلية ، ليتمكن على أساسها تحديد الوضع الصحيح لهذه الجماعات بين الجماعات الأخرى عريضة الرؤوس :

These brachycephals cannot be considered Armenoid with reference to the usual definition of that type; their relationship is obviously with other brachycephals of Europe Affiliation.

راجع : William M. Shanklin = Anthropology of Syrian Males (Jour. Roy. Anth. Inst., Vol. L XVIII), 1938.

٣ - السكان الذين ينزلون على حافة الصحراء ، في حماء وماردين وحفر وحجانه ، وهؤلاء يمكن اعتبارهم جماعات تمثل حالة الانتقال بين عناصر البحر المتوسط في الجنوب والجماعات العريضة الروس في الشمال .

ويمكن تلخيص الفروق الأساسية بين هذه المجموعات الثلاثة في النقاط الآتية :

١ - استطالة مطردة للرأس ، وانخفاض في النسبة الرأسية كلما تحركنا من الاقليم الجبلي الى حافة الصحراء ، لكن ليست هنالك قاعدة مطردة يمكن الأخذ بها فيما يختص بعرض الرأس على غرار ما لوحظ في حالة طول الرأس ، وإن كان يمكن أن نقول إجمالاً إن الروس أكثر اتساعاً بين سكان الجبال وأشد ضيقاً بين أهالي الصحراء .

ب - ضيق مطرد واستطالة في الأنف والوجه كلما تحركنا من الشمال الى الجنوب .

ج - أنوف محدبة تغلب بين سكان المناطق الجبلية ، وتظهر بصورة أقل وضوحاً بين البدو سكان الصحراء .

د - بشرة تأخذ في الاسمرار أكثر فأكثر كلما قربنا من الصحراء . أما لون العين فلم تبرز فيه اختلافات واضحة ، ولو أن العميون الزرقاء لا تظهر بين سكان الاقليم الصحراوي إلا نادراً ، وكذلك الحال في لون الشعر وشكله فما يظهر أن هنالك فروقاً تذكر بين الجماعات المختلفة في هذه الصفات .

هـ - إن نسبة المجموعة الدموية (صفر) تزداد كلما اتجهنا ناحية الصحراء ، حتى لتصل الى

أكثر من ٨٩ في المائة بين قبائل الموالي مثلاً .^(١)

(١) تتفق كل هذه النتائج مع ما وصل اليه الأستاذ (فون لوشان) على أساس مقاساته التي أخذها عام ١٨٨٣ على عدد من بدو العنازة ومن قبائل شمر ، ثم قارنها بمقاساته لعدد من العرب المسلمين الذين كانوا يقيمون في بعض مدن سوريا ، إذ كان توزيع النسبة الرأسية مثلاً . أولاً : بين البدو (٣٨ عناهه) النسبة الرأسية بين ٦٨ و ٧٨ و (١٨ من بدو آخرين) النسبة الرأسية بين ٧١ و ٨١ و (٥٠ من البدو الحائل) النسبة الرأسية بين ٧٠ و ٧٤ . ثانياً : بين سكان المدن (٢٠ عربياً من حماء) النسبة الرأسية بين ٨٥ و ٨٩ و (١٥ مسلماً من المدن السورية) النسبة الرأسية بين ٧٦ و ٨٩ كما كان يتمشى هذا مع شكل الأنف ، فالبدو بشكل عام أنوفهم قصيرة تتسع نوعاً ما ، أما العرب الآخرون فالأنف فيهم إجمالاً ضيق أشم يميل في الغالب الى التحدب ، راجع هذا كله في مقال :

ومن هذا كله يتضح أن الفوارق الجنسية في سوريا العظمى إنما تتوزع على أسس جغرافية أكثر من ارتباطها بالأسس الدينية ، وإن كان هذا لا ينفي نفيًا باتًا وجود شيء من الصحة فيما ذهب إليه (فون لوشان) في مقاله عن « السكان الأوائل لغربي آسيا » ، من أن معامل الارتباط قوى جداً بين الصفات الجنسية للعنصر الأرمني وبين الطوائف التي تعتنق المذاهب الدينية غير الإسلامية ، سواء أكان ذلك في الأناضول أم في شمال سوريا وأرض الجزيرة ، فكل هذه الجماعات عظمى التجانس في تكوينها الجثمتي ، كنتيجة طبيعية لتزاوجها الداخلي الذي حماها من الاختلاط الكبير الذي تأثرت الجماعات الأخرى به ، ولذلك يرى السكاتب في تلك الجماعات بالذات بقايا السكان الأوائل لهذا الجزء من القارة الآسيوية ، وهو في هذا منطقي مع نفسه ، لأنه من زعماء المدرسة التي تقول بأسبقية العناصر الأرمنية على عناصر البحر المتوسط في سكنى هذه الأقاليم .

ويقع الدروز والبنانيون مرتبطين بالمجموعة الجبلية ، يقربون كثيراً من المناولة وسكان البقاع ، فالدروز مثلاً عناصر عريضة الرأس ، تشدد استدارة الرأس في قسم منهم اشتداداً كبيراً ، ويصح أن نستبعد هنا ما ذهب إليه (فون أو بنهيم) من أن الدروز عرب هاجروا إلى مناطقهم الحالية في بدء القرن التاسع الميلادي ، لأن هذا يناقض ما يجري به العرف عند العرب ، بل وعند الدروز أنفسهم ، كما يناقض نتائج البحوث الأثرولوجية التي تؤكد شدة استدارة الرأس عند الدروز ، وهذه صفة لا نعرفها شائعة بين سكان الصحراء .

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن دراسة فصائل الدم عند الدروز تبعدهم عن الدائرة التي يقع فيها البنانيون على أساس التقسيمات الدموية المعروفة ، فعلى حين أن النسبة الدموية (Biochemical Race Index) للبنانيين هي ٢٥٦ (وهي نسبة تقربهم من الأرمن الذين تبلغ تلك النسبة فيهم ٢٣١ وتبعدهم عن بدو الصحراء ، ونسبتهم ١٥٩) ، نراها تهبط بين الدروز إلى ١٥٩ بحسب دراسة الأستاذ (پار) . ولما كان الفرس يتفقون في نفس النسبة مع الدروز ، مال (پار) إلى الأخذ برأي الأستاذ (حقي) ، الذي يذهب إلى وجود صلات قوية بين الفرس والدروز . وإذا لم تكن مهمتنا الآن دراسة مثل هذا الزعم ، فإن علينا أن ننبه إلى ضرورة الحرص في قبول مثل هذه الآراء ، من جهة لأن عامل التزاوج الداخلي قد يكون له أثر في هذا الاختلاف الذي نلاحظه في التركيب الدموي بين الدروز وجيرانهم من البنانيين ،

ومن جهة أخرى لأن الدراسة الأنثروپولوجية لهذه المنطقة لم تستوف حقيقتها من البحث حتى الآن ،
يضاف إلى هذا أنه إذا كان هنالك ما يبرر إيجاد صلة بين الدروز وبين الفرس - على أساس
التشابه بينهم في النسبة الدموية فموقف المؤيدين لهذا الرأي من التشابه بين الدروز وبين جيرانهم
من السوريين المسلمين في هذه الناحية بالذات ؛ فالنسبة الدموية عند هؤلاء الآخرين هي
١٦١ ، أى أنها لا تزيد عن النسبة الدموية للدروز إلا بحوالي ٠.٢ و هي زيادة يمكن إغفالها
تماماً . إن الأسس الدموية في دراسة الأجناس لا تنزل في بدايتها ، ومن الخير ألا نتعجل في
الاعتماد عليها إلى أن تتسع دائرتها لتستند نتائجها إلى بيانات أدق وأوفى .

كذلك يحسن الإشارة إلى جماعات الموارنة ، الذين يسكنون إلى الشمال من الدروز ،
والذين هم طائفة مسيحية انفصلت عن الكنيسة المسيحية في منتصف القرن الخامس الميلادي ،
وأخذت تسميتها من القسيس (حنا مارون) ، الذي اتبعه الموارنة بعد أن تم لهم الانفصال .
هذه الجماعة نظراً لعزلتها في الجبال من جهة ، ولعدم تزاوجها مع المسلمين أو الدروز من جهة
أخرى ، احتفظت بنقاوة كبيرة نسبياً ، كما يظهر فيها استدارة الرأس وارتفاعه مع تبسط في القزالي ،
بشكل لا نعهده فيما يجاورها من جماعات .

ونحن وإن كنا قد وضعنا كل الجماعات عريضة الرؤوس في قسم واحد فما ينبغي أن
ننسى أن هنالك فروقاً محلية في مدى غلبة استدارة الرأس ، نتيجة لدرجة تأثير تلك الجماعات
بالعناصر التي تنزل على حافة الصحراء . ويكفي أن ندرس الرسومات البيانية التي تمثل توزيع
النسبة الرأسية في هذه العناصر ، لنرى أن خط توزيع هذه النسب بين اللبنانيين تظهر فيه قمة
إضافية منخفضة نوعاً ما حول (٨٠ - ٩٠ ر ٨٠) ، وهي قمة لا نلاحظها في حالة الأرمن مثلاً ،
مما يدل على أن هنالك عنصراً إضافياً يدخل في التكوين الجنسي اللبنانيين ، يمكن أن نربطه
على أساس النسبة الرأسية بسكان المدن الواقعة على حافة الصحراء مثل دمشق وحمص وحلب .

ثالثاً - فلسطين :

لاحظنا في دراسة الجماعات المختلفة التي تسكن سوريا العظمى أن الرؤوس العريضة تقل
باطراد كلما تحركنا ناحية الجنوب ، حتى لمتضائل نسبتها تضاعف كبيراً بين سكان فلسطين . .
ومثل هذه الظاهرة قائمة على طول الحافة الشرقية للصحراء السورية ، إذ أن أبحاث الأستاذ

(كرشنرز) تبين أن أصحاب الرؤوس التي تشتمد استمدارتها يمثلون بنسبة قليلة جدا بين الجماعات التي تسكن في شمال أرض الجزيرة ، ثم تزداد نسبتهم ضاآلة في جنوب العراق وفي الجزيرة العربية ، على حين ترتفع نسبة الرؤوس المتميزة بالاعتدال في الاستدارة والرؤوس الطويلة في تلك الأقاليم .

يختلف سكان فلسطين إذاً اختلافا جوهريا عن معظم العناصر التي تسكن الى الشمال منهم عامة وعن سكان لبنان بوجه خاص ؛ والدراسة التاريخية لامتداد نفوذ الحيثيين - الذين يمكن أن يرجع اليهم نشر المميزات الأرمينية - تفسر هذا الاختلاف بوضوح ، فالمعروف أن الحيثيين قد مدوا نفوذهم على كل أرمينيا الأناضولية ، وغزوا أرض الجزيرة في الشرق ، وسكنوا المناطق الجبلية والمناطق الساحلية في سوريا لعدة قرون قبل الميلاد ، لكنهم لم يسكنوا فلسطين الا سكني مؤقتة ، كما أن عددهم كان قليلا .

والدراسة الاثروپولوجية لمن يسميهم الاستاذ (كابرز) عربا - من سكان المدن الواقعة شمال خط يمتد بين يافا وأريحا - تبين أن السكان هنالك من أصحاب الرؤوس المتوسطة الذين يتفقون مع سكان منطقة حافة الصحراء من حاب ودمشق الى حدود شرق الأردن . . وربما كان مرجع هذا الى الموجات الأرامية التي أتت من الشرق واستقرت حول دمشق وفي شمال فلسطين وشرق الأردن ، إذ أن الأستاذ (بهل) يذهب الى أن الأراميين قد دخلوا شمال فلسطين عن طريق دمشق ، ساكنين جزءاً من وادى البقاع كما سكنوا شمال فلسطين ، وكما نزلوا على حافة الصحراء في شرق الأردن ممتدين على طول الحافة حتى حمص شمالاً (١) . وكذلك كانت الموجات البشرية المختلفة التي وصلت الى فلسطين تعمل على أن تبرز استطالة الرأس أو توسطها ، إذ كانت غالبية هذه الموجات آتية إما من الغرب بطريق البحر تحمل صفات عناصر البحر المتوسط ، أو من

(١) المعلومات قليلة عن الصفات الجثمانية التي كان الأراميون يتميزون بها ، فهناك سييس وپترى يذهبان الى انهم عناصر فاتحة اللون زرقاء العيون من طلائع الشماليين (Proto Nordies) لكن هنالك من يعارض هذا الرأي ويعتبر الأراميين من الناحيتين اللغوية والجنسية متصلين بالمجموعات التي تتكلم اللغات السامية ، والثابت أن شكل الرأس في الأراميين ليس في استطالة رؤوس العناصر الشمالية وانما يميل الى المتوسط ، ولو ان هذا قد يكون نتيجة للاختلاط بين عناصر عريضة الرؤوس كالحيثيين وعناصر طويلة الرؤوس كالفينيقيين مثلاً (راجع في دراسة هذه النقطة كتاب الأستاذ (كابرز) عن الدراسة الاثروپولوجية للشرق الأدنى صفحة ٦٩ .

الصحراء ، تصل منها مباشرة ، أو تمر أولاً بأرض الجزيرة ، وكل هذه الموجات كانت تحمل مؤثرات متشابهة لا تمت الى كثير من الصفات التي عرفناها في بعض جماعات سوريا ولبنان بسبب كبير .

وليس في الامكان أن يتعرض الباحث لدراسة سكان فلسطين دون أن يدرس وضع اليهود العنصري بين سكان هذا الاقليم ، لكن ينبغي عند التعرض لهذه الناحية أن نستبعد اليهود الذين دخلوا فلسطين بعد الحرب الماضية ، لأن هؤلاء خليط لا تربط بينهم رابطة جنسية على الأساس العلمي الصحيح ، كما ينبغي أن نشير الى أن اليهود بوجه عام لا يكونون وحدة جنسية منسجمة ، على الرغم من أن هناك كتاباً يصفون اليهود بأنهم عناصر سامية نقية مختارة ، ومن أن بعض الكتابات العلمية تصفهم بالتجانس الشديد (١) . وما يهمنا في هذا البحث أن نناقش هذه الآراء بالتفصيل ، وإنما يكفي أن نقرر هنا أن مثل هذا الانسجام لا وجود له الا في مخيلة بعض الكتاب ، إذ أثبت البحث الانثروپولوجي العميق أن التباين في المميزات الجثمانية للجماعات اليهودية المختلفة تباين شديد ، لا في الصفات الظاهرية كلون البشرة والعين والشعر مثلاً ، بل يتجاوز هذا الى شكل الشعر وصفات الأنف وأبعاد الرأس وما الى ذلك : فهناك يهود سمرة البشرة وآخرون يميلون الى البياض بشكل محسوس ، وهناك يهود زرق العيون ويهود سود العيون ، بل ومن اليهود من يتجمع شعره ومنهم من يتوج فيه الشعر أو يستقيم . . والنسبة الرأسية نفسها - التي أشرنا الى أن غالبية العلماء يتخذونها الأساس الأول في التمييز بين الأجناس - تهبط في بعض اليهود الى (٦٥) وترتفع في بعض منهم الى (٩٥) ، وبهذا نكون أمام خليط غير متجانس تشدد فيه استطالة الرأس آونة وتعظم استدارتها آونة أخرى . . وعلى ذلك يمكن أن نفسر لمال بعض الكتاب الى تقسيم اليهود الى مجموعتين رئيسيتين : الأولى الـ (Ashkenazim) ، الذين يمثلهم غالبية يهود أوروبا ، والذين يتميزون بالوجه المستدير والأنف المحدث القصير والعيون الرمادية الصغيرة ، والثانية مجموعة الـ (Sephardim) ، الذين يمثلهم يهود اقليم البحر المتوسط ، وهم لهذا يقربون في صفاتهم الجثمانية من صفات سلالات البحر المتوسط ، ذوو وجوه بيضاوية وأنوف ضيقة شماء وشعر أسود وعيون تأخذ فتحتها شكل (اللوزة) . . ومع ذلك فكل هذا لون من التبسيط للصورة الجنسية المعقدة لليهود الحاليين ، الذين لا يمثلون في عرف علماء الأجناس جنساً ، بل هم خليط تأثرت كل مجموعة منه بالصفات الجثمانية للجماعة التي سكنت بينها .

ومن هنا كان التباين الكبير بينهم في المميزات الجنسية على الرغم مما يربط بين اليهود من وحدة الأمانى والدين^(١).

هذا عن العناصر اليهودية الحديثة ، أما اليهود قبل فترة الانتشار التي بدأت عندما وضع البابليون أيديهم على (أورشليم) حوالي ٥٨٦ قبل الميلاد فقد تكونوا نتيجة لموجات متعددة ، وصلت الى فلسطين في فترات مختلفة ، وبطرق مختلفة ، وتحت زعامة مختلفة ، وإن كان بنو اسرائيل الذين يكونون العنصر الأساسي في اليهود الحاليين - فيما يظهر - قبائل بدوية أو نصف بدوية تتكلم اللغة السامية ، جاءوا من الصحراء وسكنوا أولا على حافتها في جنوب العراق ، ثم تحركوا الى أن هبطوا فلسطين حيث مثلوا العناصر التي سبقتهم الى سكنى هذا الاقليم . . . وفي الامكان اعتبار هؤلاء اليهود من عناصر البحر المتوسط أساسا ، وإذا فقد كان تكويينهم الجنسي بسيطا ، ما داموا أصلا ينتمون الى هذه العناصر ، وما دام الذين سيحملونهم يرجعون الى هذه العناصر أيضا مع وجود أثر بسيط للرؤوس العريضة بطبيعة الحال^(٢). أما ماظهر فيهم بعد ذلك من صفات جثمانية أبعدتهم عن صفاتهم الأولى وقربتهم - في رأى بعض الكتاب - من الأرمن فهذه مظاهر مرجعها الى اختلاط في الفترات المتأخرة ، لم يتم في فلسطين نفسها وإنما تم خارج تلك البلاد ، سيما إذا لاحظنا أن طريقهم في الانتشار كان لا بد من أن يؤدي الى نتيجة من هذا القبيل^(٣).

(١) هنالك دراسة ملخصة للوضع الجنسي لليهود في كتاب

Julian Huxley (and others) = We Europeans, Pelican Books, 1939, pp. 152-156.

(٢) لقد كان يسكن فلسطين حوالى منتصف القرن الثاني ق. م جماعات متعددة ، فالى جانب

الاسرائيليين كان يسكن العامريون الى الشمال والكنعانيون في أرض كنعان ، وكذلك كان يعيش الفلسطينيون الذين انتشروا في شرق البحر المتوسط حوالى ١٢٠٠ ق. م آتين فيما يغلب من اقليم بحر إيجه . هذا الى جانب بعض العناصر الحيثية التي لا بد من أن يكون أثرها قد وصل الى بعض جهات فلسطين في فترة توسع امبراطورية الحيثيين . راجع تلخيصا لذلك كله في

١ - كتاب الأستاذ (كون) عن أجناس أوروبا صفحات ٤٣٢ الى ٤٣٤ .

٢ - كتاب الأستاذ (هادن) عن الأجناس البشرية صفحات ٩٨ و ٩٩ .

(٣) يرجع بعض الكتاب اعتبار اليهود أصلا عناصر عريضة الرؤوس ومن هؤلاء الكتاب الأستاذ (كارز) الذي أشرنا الى كتابه عن الدراسة الانثروبولوجية للشرق الأدنى ، راجع صفحة ٦٠ وما بعدها .

لامناص إذاً من التفريق في الناحية الجنسية بين اليهود الأصليين الذين سكنوا فلسطين واستعمروا فيها (فهؤلاء جنسياً أقرب الى العرب) وبين العناصر اليهودية الحديثة التي هي غريبة، لاعن فلسطين وحدها بل وعن يهود فلسطين الأصليين... وما دمنا بصدد الكلام على اليهود فيصح أن نتذكر أن هنالك جاليات يهودية لها أهميتها تتركز في الأقطار العربية الأسيوية خارج فلسطين :

١ - جالية بالعراق ، بدأت سكنها لهذا الاقليم على شكل مستعمرات يهودية تأسست في القرن السادس ق . م ، وقد ازدهرت هذه المستعمرات اليهودية في ظل الحكم الاسلامي ثم قل عددهم تحت سلطان الأتراك ، فأصبحوا الآن حوالي مائة وعشرين الفا بعد أن كانوا يتجاوزون المليون حسب ماذهب اليه (كون) .

ب - يهود بلاد العرب ، وهؤلاء كان عددهم كبيراً في وسط شبه الجزيرة وجنوبها في القرون السابقة مباشرة للإسلام ، وان كان هنالك شك في التاريخ الذي وصلوا فيه والطريق الذي اتبعوه . لقد كان لهؤلاء مستعمرات في مدن الحجاز واليمن ، كما تحول عدد كبير من أهل سبأ الى اليهودية ، ثم ظهر الاسلام فطرد اليهود من الحجاز ، وبهذا أصبحوا لا يوجدون الآن الا في اليمن ، وهم في ذلك القطر يقسمون بحسب لون العمل الذي يمارسونه الى طائفتين : فهناك يهود المدن الذين يسكنون صنعا وتعز وغيرها ويشغلون بالتجارة ؛ وهنالك يهود الريف الذين يعملون في الزراعة ، وهؤلاء أقل من يهود المدن عدداً (١) .

رابعا - نجد والحجاز :

إن الدراسة الأنثروپولوجية لسكان نجد والحجاز دراسة ناقصة لحد كبير ، وما تزال معلوماتنا عن غالبية هؤلاء السكان معلومات اجتهادية تقريبية ، تعتمد على دراسة عدد قليل ممن يصادفهم الباحث في الشمال أو الجنوب . ومن الكتاب من يأخذ بالنتائج التي وصل اليها الأنثروپولوجيون من دراستهم للجماعات البدوية التي تضرب في الصحراء السورية ، اعتماداً على ما يذهبون اليه من وحدة الجنس بين هذه الجماعات وبين أهالي نجد والحجاز . كل هذا يجعل من الصعب

(١) يعطى الأستاذ (كون) في كتابه عن أجناس أوروبا مقاسات مفصلة ليهود اليمن في المناطق المختلفة بها : (راجع صفحات ٤٣٨ إلى ٤٤١) .

الوصول الى نتائج نهائية في الدراسة الجنسية لهذا الجزء من أقطار الشعوب العربية الأسيوية ،
 لكن هذا لا يمنع من أن نضيف الى ما سبقته الإشارة اليه من حقائق الملاحظتين الآتيتين :
 الأولى أن كل المناطق الواقعة شمال « الربع الخالي » تكون مع قبائل شرق الأردن
 والصحراء السورية وحدة جنسية ، ومعنى هذا أن الحد الشمالى لبلاد العرب من الناحية الجنسية
 ليس هو الحد السياسى الحالى ، وإنما يعينه خط يسير مع الحدود الجنوبية لما يسمى بسهولة الهلال
 الخصيب ، وإذا فمن الضرورى أن نضم الى سكان شمال بلاد العرب قبائل « كالرولة وشمير
 والحويطات » ، وهؤلاء يتكئون أساساً من عناصر البحر المتوسط ، بل لهم يمثلون أنقى سلالات
 هذه المجموعة فى تلك الأقطار ، وبهذا يمكن أن نتلمس بينهم العربى المثالى بالصفات التقليدية
 التى يعرف عادة بها .

الثانية أن الحجاز - بحكم مركزه الدينى وملاءمة بعض جهاته لحياة الحضرة - أصبح سكان
 مدنه المعروفة ، جدة ومكة والطائف والمدينة ، شديدى الاختلاط ، فيهم من دماء مسلمى الهند
 وأهل الملايو ، بل ومن سكان التركستان وزنوج افريقية ومسلمى الصين و... وإذا كان
 هذا لا يمنع من وجود عناصر من السكان الأصليين لم تتأثر بهذا الاختلاط ، ولا يتنافى مع
 ما نصادفه هنالك من عائلات قديمة لا تزال تحتفظ بكثير من تقاوتها الجنسية ^(١) ، فإن عملية
 الاختلاط مستمرة ، وسوف تشدد بمرور الزمن وضوحاً ، بحيث تفقد الحجاز شخصيتها الجنسية
 تماماً ، وتصبح على ممر السنين من الأقاليم التى يتعمد تكوينها الجنس ، تعقداً تساهم فيه
 المجموعات الجنسية المختلفة التى أشرنا إليها .

(١) يشير الأستاذ (كون) فى كتابه الذى أشرنا اليه إلى أن العائلات الحجازية القديمة
 يمكن أن توضع بسهولة فى مجموعة متميزة ، يصفها بالقامة المتوسطة وبالرأس الذى تأتى نسبته
 بين المتوسط والاستدارة ... وينذهب هذا الكاتب الى انه وان لم تكن هنالك أسس علمية يفهم
 على ضوءها حقيقة هذا العنصر الحجازى الذى يأخذ مظهر ألبيا ، فإن وجوده حقيقة يقرها أولو
 العلم بسكان الحجاز ، بل إن (كون) ليذهب الى أكثر من هذا فيرى ان جماعات من هذا العنصر
 قد وصلت مع التوسع الاسلامى الى شمال افريقية وكانت مسئولة عن ظاهرة استدارة الرأس التى
 نلاحظها بين العائلات الارستقراطية فى كثير من مدن شمال افريقية . ومن الضرورى أن نكون
 حريصين فى قبول مثل هذا رأى الى أن تكون امامنا مقاسات كافية لأهالى الحجاز نستطيع على
 ضوءها أن نتبين ما فى هذا رأى من خطأ أو صواب : راجع كتاب (كون) صفحة ٤٠٩ .

الفرق إذاً كبير بين النقاوة الجنسية لسكان نجد والاختلاط الشديد في سكان الحجاز عامة ومدنها المعروفة بوجه خاص . ومثل هذا التباين بين النقاوة في نجد والاختلاط في الحجاز يؤيد تماماً ما ذهب إليه (ابن خلدون) في أكثر من مناسبة في مقدمته ، مؤكداً أن الصريح من النسب إنما يتحقق لسكان البوادي والضار بين في قلب الصحراء .

فأما - الأقاليم العربية الجنوبية :

فإذا ما تركنا إقليم شمال الجزيرة العربية وانتقلنا جنوباً ، فنحن في أرض العرب الجنوبيين وهؤلاء وإن اتفقوا مع الشماليين في صغر حجم الرأس ، فإنهم يختلفون عنهم اختلافاً واضحاً في كثير من الصفات الجسمانية الأخرى ، فنحن هنا أمام عناصر تبدو فيها - إلى جانب مميزات الشعر الخاصة ولون البشرة الذي تشدد سمته - استدارة الرأس واضحة ، بشكل لم نعهده بين العرب الشماليين ، الذين يتميزون باستطالة الرأس أو توسطها ، وإذا وجدت بينهم رؤوس عريضة فتسببها ضئيلة جداً إلى مجموع عدد السكان . كذلك تعدل مميزات الوجه التي عرفناها بين العرب الشماليين ، وما يصادفنا إلا قليلاً تلك التقاطيع الواضحة الحادة التي عهدناها في أهل الشمال .

ولقد أرجعنا ذلك إلى موقع هذا الإقليم بالنسبة للمجموعات الجنسية المحيطة ، وإلى الصلات التي كانت تربط بين العرب الجنوبيين ومن جاورهم من العناصر الأخرى . هذا من ناحية الخاطئ الجنسي الذي يسود في هذا الإقليم ، أما سر وجود الرؤوس العريضة هنا فقد أرجعناه إلى هجرات لعناصر عريضة الرؤوس ، يربطها بعض الكتاب بهجرات أرمنية ، ويستبعد كتاب آخرون إمكان وصول مثل هذه الهجرات إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة ، ولهذا فهم يرجعون ظاهرة استدارة الرؤوس إلى عناصر إيرانية ، اضطرت أمام ضغط موجات آتية من الشرق إلى أن تتحرك غرباً ، عابرة الخليج الفارسي ، ومؤثرة في عمان وما يقع إلى الغرب من هذا الإقليم .

هذه الفوارق الجنسية البارزة بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم تكن فيما يظهر خافية على كتاب العرب أنفسهم ، ولذا نجد نسابتهم يقسمون العرب إلى قسمين ، « عاربة » و « مستعربة » ويرجعون كل قسم منهما إلى أصل مختلف ، فالجنوبيون من العرب ينتسبون إلى (قحطان) ، أما الشماليون فينسبونهم إلى (عدنان) . على أننا وإن أشرنا إلى هذا الاتفاق في تقسيم سكان

الجزيرة العربية بين نتائج الدراسة الانثروپولوجية وبين مذهب اليه مؤرخو العرب ونسابتهم ، فليس معنى هذا أن القحطانيين كلهم عراض الروس وأن العدنانيين جميعاً طوال الروس ، إذ الموضوع ليس بهذه البساطة ، وسنرى في سياق البحث أن الأمر لا يعدو مجرد تغليب صفة على أخرى ، وأن أصحاب الروس الطويلة يمثلون في الجنوب كما يمثل أصحاب الروس العريضة في الشمال ^(١) . ولعل من المفيد أن نؤكد أنه مع كل هذه الفروق التي رأيناها تميز عرب الشمال عن عرب الجنوب ، فإن ذلك لا يمنع مطلقاً من أن نرد المجموعتين الى أصل جنسي واحد ، له صفاته العامة المشتركة التي تعدلت بعض مظاهرها فيما انحدر عن هذا الأصل المشترك من فروع .

وعلى الرغم من هذا الوصف العام فإن أجزاء البلاد العربية الجنوبية تختلف في تفاصيل تكوينها الجنسي من إقليم الى آخر ، وسنحاول الآن أن نعطي صورة خاطفة تقرب الواقع الى الأذهان .

١ - اليمن : لا بد في الكلام على اليمن وسكانها من التفريق بين سكان المرتفعات وأهل السهول ، إذ الواقع أن الحائط الجبلي الذي يكون حافة الهضبة في الغرب ، والذي يرتفع الى حوالي عشرة آلاف قدم ، قد وقف حائلاً دون توغل سكان الساحل الى إقليم المرتفعات

(١) يشير الأستاذ (سلجمان) الى وجود الروس العريضة الى جانب الروس الطويلة في الأقطار التي وصلت اليها الموجات العربية مع انتشار الاسلام ، فقد ثبت هذا من دراسة عدد من الجماجم الموجودة بمتحف فلورنس وهي لسكان من طرابلس ، كما عثر في مقبرة قرب مدينة القاهرة يرجع تاريخها الى أوائل عهد دخول الاسلام على مجموعة من الجماجم تمثل عناصر عريضة الروس ، ترتفع النسبة الرأسية فيها الى حوالي (٨٥) راجع كتاب :

C.G. Seligman = Races of Africa, London 1930, P. 234.

كذلك ثبت من الدراسة الانثروپولوجية المفصلة لمديرية الشرقية وجود اختلاف في شكل الرأس بين جهات المديرية المختلفة ، فعلى حين يمثل ذوو الروس العريضة تمثيلاً واضحاً في الشمال الشرقي للمديرية ، نجد أن الروس الطويلة واضحة جداً بين سكان مركز بليس بوجه خاص ، وقد تبين من تتبع الموجات التي وصلت الى المديرية بعد الفتح الاسلامي لمصر ان غالبية القبائل التي سكنت الاطراف الشمالية الشرقية لهذه المديرية كانت لقبائل قحطانية على حين ان إقليم بليس قد سكنته جماعات من (قيس عيلان) وهم عرب شماليون . راجع الفصل الاول والثالث من كتاب :

Abbas Ammar = The People of Sharqiya, Cairo 1944.

الداخلية ، بسبب الاختلاف في الارتفاع وما يتبع هذا من تباين في المناخ . . وفي الامكان أن نميز داخل بلاد اليمن عدة أقاليم جنسية لا يصعب أن نفرق بين ما يسكنها من جماعات :

١ - أما سكان الهضبة فيكونون فيما يظهر أنقى عناصر البحر المتوسط في بلاد اليمن ، لكن هذه العناصر النقية - التي يمكن أن نربطها بسكان بلاد العرب الشمالية - إنما يقتصر توزيعها على المنطقة الواقعة حول (صنعاء) ، أما الأقاليم الجبلية الواقعة في جنوب بلاد اليمن الى جوار (يريم) وتعز وب) فتسكنه جماعات خليطة من عناصر البحر المتوسط وعناصر ترتبط بالمجموعة (القداوية) التي نجد ما يمثلها في بعض جهات الهند . على أنه حتى في أشد جهات الهضبة نقاوة في التكوين الجنسي ، يمكن أن نلمس فروقا ثانوية بين السكان ، فقد أشار الأستاذ (كون) مثلا الى وجود عناصر بين الجند ورجال الدين تشدد فيها استطالة الرأس وطول القامة ، أطلق هو عليها اسم (Atlanto-Mediterranean Types) ، كما لاحظ أن الذين يدعون لأنفسهم الانتساب الى الرسول من بين سكان الهضبة أفتح بشرة وأشد شقرة من غيرهم من السكان ^(١) .

ب - وعلى طول السهل الساحلي - حيث لا تلائم الظروف المناخية سكنى العناصر البيضاء - يسكن زراع من الزوج الأرقاء ، لكن هذا لا يمنع من وجود عناصر من الزراع غير الزوج الذين ينتمون الى عناصر البحر المتوسط . . ولعل من المفيد أن نشير هنا الى وجود عنصر من هؤلاء الزراع الذين تظهر فيهم صفات الزوج ، يرجع تاريخه الى فترة قديمة ، وقد يكون - في رأى بعض الكتاب - بقية من بقايا حكم الأحماس لهذا الاقليم في الفترات السابقة للإسلام .

ج - ثم يبقى بعد هذا تلك العناصر التي تعيش في القرى والمدن ، والتي تظهر فيها صفات أهل الملايو ، وإن ظهر الى جانب هذا صفات تشبه المميزات الأرمنية ، سواء في شكل الأنف أو في شكل الرأس ، لكن الغريب أن صفات أهل الملايو لا تتجاوز سكان الساحل بحال من الأحوال ، مما يشير الى ارتباطها بالنشاط التجاري البحري الذي كان قائما بين اقليم الملايو والأطراف الجنوبية للجزيرة العربية ^(٢) .

(١) تراجع صفحة ٤٠٨ من كتابه مع ملاحظة أنه علل هذه الظاهرة الأخيرة بما يأتي ، وهو تعليل يجب أن يقبل بتحفظ شديد :

“ There may perhaps have been a Nordic strain associated with the holy families who entered from Hijaz in early post-Islamic times ”

(٢) يصح أن نشير هنا الى أنه وإن لم يكن لدينا دراسات محددة لسكان بلاد عسير فانهم من حيث مميزاتهم الجنسية يرتبطون بسكان الهضبة من اليمنيين أكثر من ارتباطهم بسكان الحجاز .

٢ - **مضرموت** : نحن هنا أمام عناصر خليطة لا بد من أن تربط بالكيان الجنسي للمنطقة الجنوبية كلها ، وفي الامكان أن تقرب الصورة الجنسية لسكان هذا الاقليم إذا أشرنا الى أن التركيب الجنسي لهم إنما يدخل فيه العناصر الآتية على الأقل ، مع تفاوت في الأهمية النسبية لكل منها ، تفاوتاً يمكن أن يفهم على ضوء ماسبقت الإشارة اليه من حقائق :

١ - هنالك عناصر عربية تسكن وادي (مضرموت) نفسه ، أتت الى مضرموت من الشمال ومن الغرب في عهود سابقة للإسلام وعهود لاحقة لانتشار هذا الدين ، وهذه العناصر من السهل أن نربطها بمجموعة البحر المتوسط ، التي تسكن وسط بلاد العرب وشمالها من جهة ، وتمثل في هضبة اليمن من جهة أخرى .

ب - عناصر زنجية افريقية ، أتت بها للعمل في الزراعة منذ العصور الوسطى ، إن لم يكن وصولها سابقاً لذلك ، وهذه العناصر الزنجية - سواء كانت من الرقيق أم من المعتقين - لا تزال تكون مجموعة كبيرة يطلق عليها اسم (الحجرية) ، لا تختلط بالعرب الذين يحتفظون بكثير من صفاتهم المعروفة ، على أن هذا ليس معناه انعدام الاختلاط بين المجموعتين ، بل كل ما نعبه هو أن السلالة المهجنة تبقى غالباً منتسبة الى الحجرية لا إلى العرب . . . وما يقتصر وجود الحجرية على إقليم مضرموت ، بل إن جماعات منهم تعيش في سهول اليمن الجنوبية .

ويعيش في مضرموت - الى جانب هؤلاء الحجرية - جماعات من الصوماليين ، تنتشر قراهم على طول الساحل وفي وادي مضرموت نفسه ، والظاهر أن وصول هذه العناصر ظاهرة حديثة ، بدليل أنها لا تزال تحتفظ بلغتها وعاداتها ، وبدليل أنها لا تزال تقوم بعملية تمثيلها بالعناصر الأخرى ، سواء في الصفات الجثمانية أم في مميزات الحضارة .

ج - عنصر أسيوي ، ترجع أصوله الى اقليم الملايو . وقد سبقت الإشارة الى ما كان يقوم بين هذه المناطق من بلاد العرب وبين اقليم الملايو من علاقات . . والملاحظ هنا أن أثر أهل الملايو إنما يظهر في الطبقات الأرستقراطية وحدها (مع استثناء طبقة الأسياد) ، أما الجماعات البدوية والجماعات الزنجية فقد ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات لحد كبير .

د - عناصر يمكن أن نربطها بالمجموعة القداويه ، التي أشرنا الى أن آثارها موزعة على امتداد المناطق الساحلية في جنوب بلاد العرب من جنوب اليمن غرباً الى أرض الظفار شرقاً ، كما توزع خارج الجزيرة العربية في بعض جهات السواحل الشمالية للمحيط الهندي مثلاً ، وسكان

حضر موت الذين يمكن ربطهم بهذه المجموعة يتميزون بالجسم النحيل والرأس الصغير والشعر الذي يأخذ غالباً شكل الحلقات .

٣ - **عمان** : والحال في عمان يقرب مما لاحظناه في التكوين الجنسي العام للأقاليم الواقعة في الجنوب والجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية ، فعناصر البحر المتوسط ممثلة هنا وإن كان هذا بدرجة أقل مما لاحظناه في اليمن مثلاً ، وأصحاب الروس العريضة يكثرون بين سكان عمان . وإذا كان العمانيون أبعد ما يكونون عن صفات الزنوج ، فإن هنالك جالية كبيرة من العناصر الزنجية تسكن مراكز زراعة النخيل وغيرها في عمان ، وتلك العناصر الأخيرة في الواقع أثر من آثار العلاقة التجارية التي كانت قائمة بين عمان وشرقي إفريقيا ، ونتيجة طبيعية لما كان يرتبط بهذا من تجارة الرقيق .

الاقسام الجنسية لشعوب الأقطار العربية الأسيوية :

نخرج من هذا كله بحقائق بارزة ، تصفى لنا الموقف في الدراسة الجنسية لشعوب الأقطار العربية في آسيا وأهم هذه الحقائق هي :

أولاً - إن وصف شعوب هذه الأقطار بأنها « شعوب عربية » لا يمكن أن يعتمد على الأسس الجنسية التي يحددها علماء الأجناس ، وإنما العامل المشترك بينها جميعاً هو عامل اللغة التي هي أبرز مظاهر المميزات الثقافية .

ثانياً - إن الكتلة الجنسية التي تتسع رقعتها في الأقطار العربية الأسيوية هي كتلة عناصر البحر المتوسط بصفاتها المعروفة ، تأخذ أشد مظاهر تفاوتها في قلب الصحراء ، ثم تقل هذه النقاوة كلما تحركنا شمالاً أو انتقلنا ناحية الجنوب .

ثالثاً - إن أبعد العناصر عن هذه الكتلة الجنسية الغالبة هي المجموعات التي تتمتع بشبه عزلة جنسية ، استطاعت معها أن تحتفظ بمميزات الأرمينية ، وإن كانت قد عجزت عن أن تتفادى المؤثرات الخارجية في بعض مظاهر الثقافة كاللغة مثلاً .

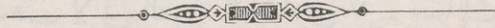
رابعاً - إن شعوب الأقطار العربية الأسيوية يمكن أن تقسمها على ضوء الحقائق التي فصلت إلى الأقاليم الجنسية المتميزة الآتية :

- ١ - إقليم يحده من الجنوب خط يوازي الحدود الشمالية لأراضي الهلال الخصيب ، تدخل فيه المناطق الجبلية .
- ٢ - إقليم يشمل الأراضي التي تقع الى جنوب الاقليم السابق حتى صحراء الربع الخالي في الجنوب .
- ٣ - الاقليم الانتقالي بين الاقليمين الأول والثاني ، يدخل فيه جنوب العراق ومعظم فلسطين والمنطقة الواقعة على حافة الصحراء .
- ٤ - إقليم اليمن وتضم اليه بلاد العسير .
- ٥ - إقليم عمان .
- ٦ - الاقليم الانتقالي بين إقليم اليمن من جهة وإقليم عمان من جهة أخرى .

جماعة الدول العربية في ضوء الدراسة الجنسية لهذه الدول :

والآن وقد رأينا أن الوحدة الجنسية بين شعوب الأقطار العربية الأسيوية ليست وحدة تامة ، وأن هنالك اختلافات تفصيلية في المميزات الجثمانية بين كثير من الجماعات التي تسكن هذه الأقطار ، فما صلة هذا كله بتكوين جماعة الأمم العربية ، وما مبلغ الأثر الذي قد تتركه مثل هذه الحقيقة في توجيه التفكير في هذا الموضوع ؟ إن من الكتاب في هذه المسائل من يرى أن وحدة الشعوب أمر يتطلب انسجاماً تاماً في التكوين الجنسي لها ، ويستلزم اتفاقاً في رابطة الدم وصلة الأنساب. ونحن وإن كنا نسلم بأن الوحدة المثالية قد تستدعي مثل هذا ، فإننا لانكاد نلمس لمثل هذه الوحدة وجوداً في غالبية دول العالم وقومياته ، إن تركنا جانباً روابط الثقافة ، ورحنا نحلل كيائها الجنسي على الأسس العامة التي وضعها علماء الأجناس لتقسيم الجماعات والشعوب ، فالجزائر البريطانية والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتي و... كل هذه وحدات يتداخل في التكوين الجنسي لكل وحدة منها عناصر متعددة ، تتقارب أحياناً وتتباعد أحياناً أخرى ، ومع ذلك لم يمنع عدم التجانس الذي نلمسه بين سكانها من وجود صلات قوية جداً بين تلك العناصر المختلفة ، ترتكز على رابطة المكنان من جهة ، وعلى ما تحققه تلك الصلات من فوائد اقتصادية وسياسية وحرية ، فوائد ما كان يمكن أن تتحقق لو ظلت تلك العناصر مفككة متنافرة ، تتجه كل منها اتجاهاً فردياً لا تقيده فيه باتجاهات العناصر الأخرى .

فإذا ثبت لنا وجود العوامل الأخرى اللازمة لتكوين وحدة جامعة الأمم العربية ،
واتضح لنا أن هنالك منافع اقتصادية وسياسية مؤكدة يمكن أن تجنيها الأقطار العربية من اتحادها ،
وتذكرنا دائما أن فكرة جامعة الأمم العربية لا ترمى الى الاندماج والانصهار بل انه سيحتفظ لكل
وحدة فيها بشخصيتها وذاتيتها ، فما ينبغي أن يعوق تحقيق قيام مثل هذه الجامعة ما يعترى
انسجامها الجنسي من ضعف في بعض الأقطار ، سيما إذا أدركنا أن العناصر الجنسية الأساسية
بين سكان الأقطار العربية الأسيوية جميعا لا تتباعد تباعدا مُتَفَرِّقا في تكوينها الجنسي ، سيما
إذا تنبهنا الى أن هذه الأقطار إنما يجمع بينها وحدة اللغة ، ويوجد بين غالبية سكانها عامل الدين ،
واللغة والدين من أقوى العوامل التي تقرب بين الشعوب وتربط بين مختلف القوميات .



مراجع البحث

أولا - المراجع العربية :

ليس هنالك لسوء الحظ دراسات علمية لشعوب الأقطار العربية ، وكل ما لدينا كتابات عامة بعضها عن العرب وقبائلهم في الأقطار المختلفة ، وبعضها عن العشائر والبطون الضاربة في قطر معين من تلك الأقطار ، ومثل هذه الكتابات ، إن أفادت ففي الدراسة التاريخية أو النواحي الاجتماعية ، أما الحقائق الجنسية والتفاصيل الأنثروبولوجية فلم تلق في المؤلفات العربية الى الآن ما تستحقه من عناية .. وفيما يلي أهم المراجع العربية التي قد يجد الباحث فيها مادة تنير له السبيل في بعض نواحي الدراسة لشعوب الأقطار العربية الأسيوية ، وإن كنا ننبه الى ضرورة الحرص في الأخذ بكثير مما ذهبت اليه غالبية الكتاب فيما نشير اليه من مؤلفات :

- ١ - صفة جزيرة العرب للإمْدَانِي ٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ - الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ٤ - العبر لابن خلدون ٥ - صبح الأعشى ونهاية الأرب وقلائد الجمان للقلقشندي ٦ - سبائك الذهب لأبي الفوز البغدادي ٧ - مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ٨ - جمهرة النسب لابن حزم الظاهري ٩ - بلوغ الأرب للسيد شكري الالوسي ١٠ - القضاء بين البدو للسيد عارف المعارف ١١ - جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه ١٢ - جغرافية العراق لطف الهاشمي ١٣ - صفحة من تاريخ أعراب شمال الشام لوصفي زكريا ، بمجلة الثقافة التي تصدر بدمشق في الجزء السابع من السنة الأولى (١٩٣٣) وما يلي ذلك من أجزاء ١٤ - المدخل الشرقي لمصر لعباس عمار ١٥ - تاريخ شرقي الأردن وقبائلها تأليف فردريك بيك وتعريب بهاء الدين طوقان .

ثانياً - المراجع الأفرنجية :

1. Ammar, A.M. = Physical Measurements and Serology of the People of Sharqiya. (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. LXX, Part 11, 1940).
2. " " = Racial Elements in the North - Eastern Province of Egypt (Jour. Roy. African Society, 1941 - 1942).
3. " " = The People of Sharqiya, 2 Volumes, Cairo 1944.
4. Barton, G.A. = Semitic and Hamitic Origins, Philadelphia 1934.

5. Burckhardt, J.L. = Notes on the Beduins and Wahabys, Vol. 1, London 1831.
6. Buxton, L.H.D. = The Peoples of Asia, London 1935.
7. Chantre, E. = Recherches Anthropologiques dans l'Asie Occidentale, Lyon 1895.
8. Coon, C.S. = Races of Europe, New York 1939.
9. Deniker, J. = Les Races et les Peuples de la terre, Paris 1926.
10. Field, H. = The Arabs of Central Iraq, Chicago 1935.
11. Glubb, J.C. = The Beduins of Northern Iraq (Jour. Roy. Central Asiatic Society, Vol. XXII, 1935).
12. Haddon, A.C. = The Races of Man, Cambridge 1929.
13. " " = Wanderings of Peoples, Cambridge University Press 1911.
14. Hooton, E.A. = Up from the Ape, London 1931.
15. Herdlicka, A. = The Coming of Man from Asia (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XVII, 1920).
16. Huxley, J. & others = We Europeans (Pelican Books, 1939).
17. Kappers, C.U.A. = An Introduction to the Physical Anthropology of the Near East, Amsterdam 1934.
18. Keith, (Sir Arthur) = The Racial Characters of the Southern Arabs (Appendix 1 to B. Thomas's book on Arabia Felix).
19. " " = Introduction to Henry Field's Book on the Arabs of Central Iraq.
20. Krischner H.T.M. = The Anthropology of Mesopotamia and Persia (Proc. Roy. Acad. Amsterdam Vol. XXXIII, 1930; Vol. XXXIV, 1931).
21. Leys, N.M. & Joyce, A.T. = Notes on a series of Measurements from East Africa (Journ. Roy. Anthr. Institute Vol. XLIII 1913).
22. Luschan, V. = The Early Inhabitants of Western Asia (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. XLI, 1911).
23. Musil, A. = Arabia Deserta, New York 1927.
24. " " = The Manners and Customs of the Rwala Beduins, New York 1928.
25. Parr, L.W. = Blood Studies on Peoples of Western Asia and North Africa (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XVI, 1931).
26. " " = Isohemagglutination studies on Near Eastern Race Groups (Chapter X in Kapper's Book on the Anthropology of the Near East).
27. Pittard, E. = Race and History, London 1927.

28. Ripley, W.Z. = The Races of Europe, London 1899.
29. Sayce, A.H. = The Races of the Old Testament, London 1925.
30. Seligman, C.G. = Some Aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan (Jour. Roy. Anthr. Institute. Vol. XLIII, 1913).
31. " " = The Physical Characters of the Arabs (Jour. Roy. Anthr. Institute Vol. XLVII, 1917).
32. " " = Races of Africa, London 1930.
33. Seltzer, C.C. = The Racial Characteristics of Syrians and Armenians (Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethnology, Harvard University, Vol. XIII No. 3, 1936).
34. Sergi, G. = The Mediterranean Race, London 1901.
35. Shanklin, W.M. = Blood Grouping of Rwala Beduins (Jour. Immunol. Vol. XXIX, 1935).
36. " " = The Anthropology of the Rwala Beduins (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. LXV, 1935).
37. " " = Anthropology of the Akeydat and the Mualy Beduins (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXI, 1936).
38. " " = Blood Grouping of the Mualy and Akeydat Beduins (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXI, 1936).
39. " " = Anthropometry of Syrian Males (Jour. Roy. Anthropol. Institute, Vol. LXVIII, 1938).
40. " & N. Izzedin = Anthropology of the Near East Female (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXII, 1937).
41. Thomas B. = Arabia Felix, London 1932.
42. Worrell, W.H. = A Study of Races in the Ancient Near East, Cambridge, 1927.

ملاحق

أولاً - الجداول الإحصائية :

- ١ - المساحة وعدد السكان في الأقطار العربية الأسيوية .
- ٢ - توزيع السكان في سوريا ولبنان حسب طوائفهم الدينية .
- ٣ - توزيع السكان في فلسطين بحسب ديانتهم .
- ٤ - توزيع السكان في العراق حسب طوائفهم ومذاهبهم الدينية .
- ٥ - المقاسات الأنثروبولوجية الأساسية لأهم الجماعات في الدول العربية الأسيوية .
- ٦ - توزيع مجموعات الدم بين أهم الجماعات في الأقطار العربية الأسيوية .

ثانياً - الرسوم البيانية :

- ١ - توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات العريضة الرؤوس في سوريا ولبنان .
- ٢ - « « « سكان الحافة الغربية للصحراء السورية .
- ٣ - « « « الجماعات العربية والبدوية في سوريا وشرقي الأردن وفلسطين وجنوب الجزيرة العربية .
- ٤ - « « « الجماعات التي تسكن شمال العراق .
- ٥ - « « « « « « « وسط العراق .

ثالثاً - الخرائط :

- ١ - خريطة تبين الدول العربية الأسيوية .
- ٢ - « « الهجرات البشرية الرئيسية في جنوب غربي آسيا .
- ٣ - « لتوزيع أهم الجماعات في سوريا ولبنان .
- ٤ - « « « « شمال العراق .

جدول رقم (١) الأقطار العربية الآسيوية مساحة وسكاناً^(١)

القطر	المساحة (كم ٢)	عدد السكان
سوريا	١٧١١٠٤	٣٨٨٣٦٣٨ (١٩٤٢)
لبنان	١٠١٧٠	١٠٠٢٢١١٤ ()
فلسطين	٢٧٠٠٩	١٠٥٣٨٥٩٩ ()
شرق الأردن	٩٠٠٠٠	٣١٠٠٠٠ (١٩٣٨)
العراق	٤٥٣٥٠٠	بين ٣ مليوناً و ٣٥ مليوناً
مستعمرة عدن	١٢١	٤٥٩٩٢ (١٩٣١)
حماية عدن	٣٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠
الكويت		٦٠٠٠٠
مسقط وعمان	١٣٢٠٠٠	٥٠٠٠٠٠
مملكة العرب السعودية	١٢٨٧٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠
اليمن	١٢١٠٠٠	بين ٣ مليوناً و ٤ مليوناً
البحرين	٦٠٠	١٢٠٠٠٠

(١) اذا استثنينا سوريا ولبنان وفلسطين والعراق فالأرقام لباقي الأقطار العربية الآسيوية تقديرية لادقة فيها ، كذلك يلاحظ أن إحصاء البدو أمر على درجة كبيرة من الصعوبة حتى في الأقطار التي يوجد لها إحصائيات على شيء من الدقة .

ويستطيع القارئ أن يرجع - إن شاء إحصائيات أوفى - الى الجداول المفصلة التي تصدرها دول مثل سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ؛ وهناك جداول تلخيصية لا بأس بها في كتاب :

Statistical Handbook of Middle Eastern Countries (Published by the Economic Research Institute - Jewish Agent for Palestine), Jerusalem 1944.

جدول رقم (٢) : توزيع السكان في سوريا ولبنان بحسب مذاهبهم الدينية (باستثناء البدو)

لبنان (١٩٤٢)	سوريا ^(١) (١٩٣٨)	المذاهب الدينية
٢٢٥٠٥٨٤	١٠٧٢٧٤٠٢	السنينيون ^(٢)
٢٠٠٠٦٩٨	١١٠٥٤١	الشيعة
—	٢٧٤٠٤٨٦	العلويون
٧١٠٧١١	٧٩٤٢٨	الدروز
—	٢٤٠٣٩٠	الاسماعيلية
٣١٨٠٢٠١	١١٠٨٠٠	الموارنة
٦١٠٩٥٦	٤٢٠٤٢٧	الميلكيون
٣٠٠٠٢	٤٠٧٥٠	اللاتينيون
٩٠٧٤٣	١٢٠١٣٧	الآرمن الكاثوليك
٤٠٧٨٨	١٤٠١٨٢	السوريون الكاثوليك
١٠٢٧٤	٣٠٧٥٩	الكلدانيون
١٠٦٠٦٥٨	١١٥٠١١٨	الروم الأرثوذكس
٥٨٠٠٠٧	٨٦٠٧٤٢	الآرمن (الجريجوريان)
٣٠٥٧٥	٣٢٠٨٩٢	السوريون الأرثوذكس
١٠٠١٥٢	٧٠٦٦٠	البروتستانت
—	٢٠٠٦٣	اليزيديون
٥٠٥٠٣ ^(٣)	٢٦٠٢٥٠	اليهود

(١) يدخل في هذا سكان اللاذقية وجبل الدروز ، ولا يعد فيه سكان سنجق الإسكندرونة .

(٢) يدخل في هذا الآكراد والترك والتركان والشراكسة إلى جانب العرب .

(٣) يراجع في هذا صفحة ١٠٠ من كتاب :

Statistical Handbook of Middle Eastern Countries, (Published by Economic Research Institute, Jewish Agency for Palestine), Jerusalem 1944.

جدول رقم (٣) السكان المستقرون في فلسطين حسب مذاهبهم الدينية (١)

السنة	الجملة	مسلمون	يهود	مسيحيون	مذاهب أخرى
تعداد ١٩٢٢	٦٤٩٠٠٤٨	٤٨٦٠١٧٧	٨٣٠٧٩٠	٧١٤٦٤	٧٦١٧
» ١٩٣١	٩٦٦٧٦١	٦٩٣١٤٧	١٧٤٠٦٠٦	٨٨٩٠٧	١٠٠١٠١
تقدير في ١٩٤٠	١٠٤٦٠٩٢٣	٨٧٣٤٥٣	٤٥٦٠٩١	١١٨٩٦٦	١٢٤١٣
» ١٩٤٣	١٠٥٨٢٠٨٣٣	٩٤٦٩٧٣	٤٩٢٩٨٠	١٢٩٤٦٦	١٣٤١٤

جدول رقم (٤) سكان العراق

حسب مجموعاتهم ومذاهبهم الدينية (٢)

الجماعات	سنيون	شيعة	مسيحيون	يهود	مذاهب أخرى	الجملة
العرب	٤٥٠٠٠٠	١٠٦٠٠٠٠	—	—	—	٢٠٥٠٠٠٠
الآكراد	٦٥٠٠٠٠	—	—	—	—	٦٥٠٠٠٠
مسيحيون	—	—	١٨٠٠٠٠	—	—	١٨٠٠٠٠
يهود	—	—	—	١٢٠٠٠٠	—	١٢٠٠٠٠
إيرانيون	—	٨٥٠٠٠	—	—	—	٨٥٠٠٠
ترك	٧٠٠٠٠	—	—	—	—	٧٠٠٠٠
يزيديون	—	—	—	—	٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠
جماعات أخرى	—	—	—	—	٢٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
الجملة	١٠١٧٠٠٠	١٠٨٦٥٠٠٠	١٨٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	٦٠٠٠٠	٣٢١٥٠٠٠

(١) قدر عدد البدو في تعداد ١٩٢٢ بـ ١٠٨١٣٤ ، وفي تعداد ١٩٣١

بـ ٦٦٥٥٣.

(٢) على أساس تقديرات ما قبل الحرب الأخيرة.

جدد ورقم (٥): مقومات العلم والمبادئ والنسب الأثرية ومترتبة مدارس من جماعات الأقطار العربية [أولا: سوريا ولبنان] (١)

الجموعة	أهل البقاع	عدد الحالات	القائمة	طول الرأس	عرض الرأس	النسبة الرأسية	عرض الوجه	ارتفاع الوجه	النسبة الوجهية	ارتفاع الأنف	انساع الأنف	النسبة الانفية
المساولة	١٤٩	١٦٥	١٦٥	١٧٧	١٥٠	٨٤	١٢٥	١٢٢	٩٠	٥١	٣٣	٦٥
العلويون	٣٠٢	١٦٦	١٧٦	١٧٦	١٥٢	٨٧	١٣٥	١٢١	٨٩	٥٢	٣٣	٦٤
الدروز	٣٠٩	١٦٦	١٧٨	١٤٨	١٥٠	٨٣	١٣٤	١٢٢	٨٨	٥٣	٣٤	٦٥
أهل حماه	١٨١	١٦٥	١٨١	١٥٦	١٥٠	٨٦	١٣٩	١٢٦	٩٠	٥٦	٣٥	٦٢
ماردين	١٥٧	١٦٨	١٨٤	١٤٧	١٤٣	٧٨	١٣٢	١٢١	٩٠	٥٢	٣٥	٦٨
حفر	٩٣	١٦٨	١٨٩	١٤٣	١٤٣	٧٩	١٣٤	١٢٢	٩٠	٥٢	٣٥	٦٨
حجالة	٢٩٨	١٦٤	١٨٤	١٤٢	١٤٢	٧٧	١٣٣	١٢٢	٨٨	٥١	٣٥	٦٩
الموالي	١٧٦	١٧٠	١٩٠	١٤٧	١٤٧	٧٧	١٣٥	١٢٤	٩١	٥٠	٣٣	٦٦
العقيدات	١٢٠	١٦٨	١٩١	١٤٦	١٤٦	٧٦	١٣٤	١٢٣	٩١	٥٤	٣٦	٦٥
الروالة	٣٧٠	١٦١	١٩١	١٤٣	١٤٣	٧٥	١٢٩	١١٩	٩١	٥٥	٣٥	٦٣
عرب من كثن	٣٩٠	١٦٧	١٨٨	١٤١	١٤١	٧٥	١٢٩	١١٩	٩٢	٥٨	٣٥	٦١
جند عراقيون	٢٢٨	١٧٢	١٨٧	١٤٣	١٤٣	٧٦	١٣٣	١٢٠	٩٠	٥٦	٣٤	٦١
بلو من بهيج	٣٨	١٦٨	١٩١	١٤٠	١٤٠	٧٣	١٢٨	١١٧	٩١	٥٤	٣٥	٥٨

(١) يرجع في تفاصيل هذه الأرقام جداول الأسماء (شأنكين) في مقالاته المختلفة عن المجاعات السورية واللبنانية التي أشير إليها ضمن مراجع هذا البحث .

(٢) (هنري فيله) في كتابه عن عرب العراق الأوسط .

تابع جدول رقم (٥) : متوسطات أهم المقاييس والنسب الأنتروپومترية

الجموعه	عدد الحالات	القامة	طول الرأس	عرض الرأس	النسبة الرأسية	عرض الوجه	ارتفاع الوجه	النسبة الوجيه	ارتفاع الأتف	اتساع الأتف	النسبة الأتفيه
أهل الكويت	٤٠	١٦٥٠ سم	—	—	ثالثا : ٧٩ر٦	الكويت (٣) —	١٢٨ر٢ سم	٩٤ر٤	٥٦٠ سم	٣٦٠ سم	٦٤ر٧
سكان المصنبة	٤٠٠	١٦٤ر٠	١٨٨ر٠ سم	١٤٣ر٠ سم	رابعا : ٧٦ر٠	اليمن (٤) ١٣٢ر٠ سم	١٢١ر٠	٩٢ر٠	٥٦٠	٣٣٥	٦١ر٠
الساحل	٩	١٦٠ر٠	١٧٧ر٠	—	٨٤ر٠	—	١١٨ر٠	—	—	—	٦٤ر٠
قبائل يافج	٥	١٦١ر٠	١٧٥ر٢	١٤٣ر٠	خامسا : ٨١ر٧	حضر موت وعان (٥) —	—	—	—	—	—
مهرة	٥	١٦٥ر١	١٦٨ر٨	١٤٦ر٢	٨٦ر٧	—	—	—	—	—	—
قرا	٧	١٦٨ر٠	١٦٤ر٥	١٤٦ر٥	٨٩ر١	—	—	—	—	—	—
الشجر	٩	١٦١ر٣	١٦٩ر٧	١٤٩ر٢	٨٨ر١	—	—	—	—	—	—
الكثيرى	٤	١٦٦ر٤	١٦٢ر٢	١٤٦ر٥	٩٠ر٣	—	—	—	—	—	—
العمانيون	٣	١٧٠ر٢	١٧٠ر٦	١٤٥ر٣	٨٥ر١	—	—	—	—	—	—

(٣) و (٤) : يراجع كتاب الأستاذ (كون) عن أجناس أوروبا.

(٥) : يراجع كتاب الأستاذ (برترام ثوماس) Arabia Felix.

جدول رقم (٦) : التوزيع المئوي لمجموعات الدم المختلفة
بين أهم ما درس من جماعات الأقطار العربية الآسيوية (١)

النسبة المئوية	النسبة المئوية في مجموعات الدم المختلفة				عدد الحالات	الباحث	المجموعة
	أ	ب	أ	صفر			
٢٣١	١٣٠١	١٢٦٣	٤٦٢٠	٢٨١٤	٣٠٨٠	پار	الآرمن
٢٩٥	٦٠٠	١٤٠٠	٥٣٠٠	٢٧٠٠	٦٥٣	ألتونيان	"
٢٠١	٦٨٠	١٦٦٠	٤٠٣٠	٣٦٣٠	٢٨٠	كوسوفتش	"
١٦١	٩٢٨	١٩١٣	٣٦٥٧	٣٥٠٠	١٧٧٧	پار	مسلمو سوريا
٢٥٣	٧٦٥	١٢١٤	٤٢٣٧	٣٧٨٢	٢٠٩١	"	مسيحيو سوريا
	—	٣٢٨	٧٥٠	٨٩١٩	٢١٣	شانكن	الموالي
	٢٥٢	٥٦٥	١٦٩٧	٧٤٨٤	١٥٩	"	العقيدات
	—	—	٥٠٦	٩٤٩٤	٧٩	"	الرولة (معسكر)
	١٣٠	٢٦٠	٩٠٩	٨٧٠١	٧٧	"	(٢)
	—	٥١٧	١٢٠٧	٨٢٧٦	٥٨	"	(٣)
١٥٩	١٢٢٢	١٨٣٤	٣٦٢٤	٣٣١٨	٢٢٩	پار	الدروز
١٥٥	١٠٦٢	١٨١٢	٣٤٠٦	٣٧١٨	٣٢٠	يونوفتش	يهود (أشكينازيم)
١٨٥	٧١٠	١٨٧٠	٤٠٨٠	٣٣٤٠	؟	قلش	()
١١٦	٦٩٦	٢٣٤١	٢٨٤٨	٤١١٣	١٥٨	يونوفتش	(سيفارديم)
١٣٤	٥٠٠	٢٣٢٠	٣٣٠٠	٣٨٨٠	؟	قلش	()
١٤٠	١٧٦٧	١٩٣٣	٢٤٢٥	٢٨٧٢	١٨١	پار	سوريا
١٥٠	٨٠٠	٢٠٠٠	٣٤٠٠	٣٨٠٠	١٧٢	ألتونيان	حلب
٢٠٥	١٠٥٥	١٤٩٠	٤١٦١	٣٢٩١	١٦١	پار	الآشوريون
١٥٠	٥٠٠	١٩٠٠	٣٢٤٠	٤٣٦٠	٥٠٠	هرشفلد	العرب ؟

(١) المراجع في مجموعات الدم كثيرة في اللغات الأجنبية ، وهناك بعض كتابات باللغة العربية في هذا الموضوع منها مقالان طويلان يجد القارئ العربي فيهما مادة كثيرة هما :

أ — بحث في دراسة فصائل الدم الآدمي (للدكتور داود متي) ، مقالات نشرت بالأعداد ٢ و ٤ و ٦ و ٧ و ٩ بالمجلة الطبية المصرية السنة الحادية والعشرون (١٩٣٨) .

ب — أسرار الدماء (للدكتور علي توفيق شوشه بك) في الكتاب السنوي السابع للمجمع المصري للثقافة العلمية (١٩٣٦) .
أما أهمية فصائل الدم في الدراسات الجنسية للشعوب ، فإن القارئ يجد عرضاً وافياً لها في الجزء الخاص بهذا في كتابي عن أهل الشرقية (باللغة الانجليزية) :

" On the Validity and Significance of Blood Groups in Anthropological Research "

— Abbas M. Ammar — The People of Sharqiya : Their Racial History, Serology, Demography, and Conditions of Life, Cairo 1944.

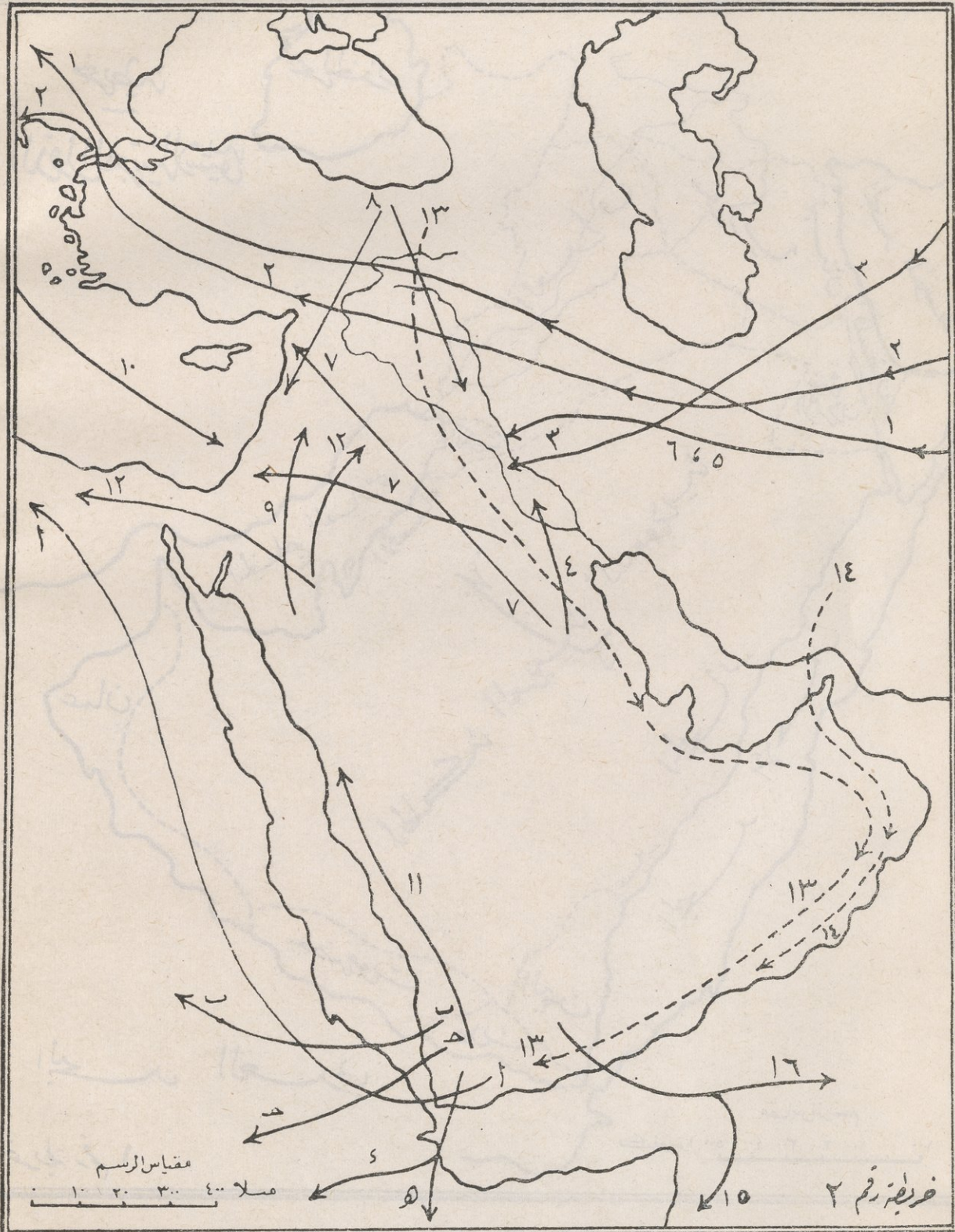
فصلنامه و کتابخانه و موزه و مرکز اسناد مجلس شورای اسلامی
(۱) فهرست اسامی و اعداد و ارقام در این کتاب

ردیف	اسم	تعداد	تعداد	تعداد	تعداد	تعداد	تعداد
۱	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۵	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۶	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۷	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۸	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۹	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۰	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۱	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۲	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۳	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۴	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۵	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۶	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۷	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۸	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۱۹	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۰	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۱	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۲	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۳	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۴	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۵	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۶	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۷	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۸	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۲۹	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۰	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۱	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۲	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۳	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۴	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۵	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۶	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۷	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۸	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۳۹	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۰	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۱	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۲	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۳	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۴	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۵	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۶	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۷	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۸	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۴۹	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰
۵۰	کتابخانه	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰	۱۷۰

توضیحات در باره اعداد و ارقام
فصلنامه و کتابخانه و موزه و مرکز اسناد مجلس شورای اسلامی
(۱) فهرست اسامی و اعداد و ارقام در این کتاب



الهجرات البشرية الرئيسية في جنوب غرب آسيا

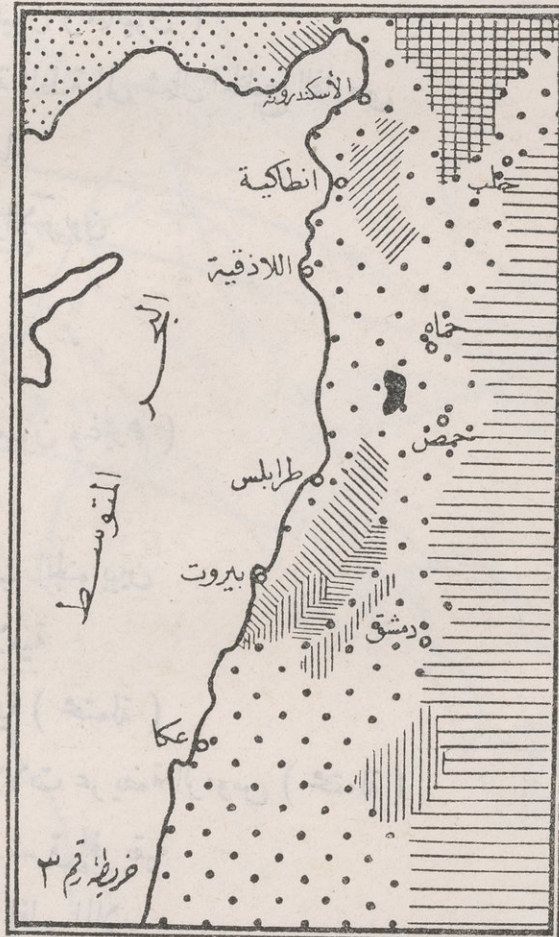


الهجرات البشرية المبينة بالخريطة رقم ٢

- ١ - هجرات ألبيه
- ٢ - أتراك (سلجوقيون وعثمانيون)
- ٣ - هجرات أورالية ألطية إلى شمال الخليج الفارسي
- ٤ - الساميون القدماء
- ٥ ٦ - الميديون والآريون
- ٧ - الساميون
- ٨ - الحثيون
- ٩ - الساميون (أراميون وغيرهم)
- ١٠ - الفلسطينيون
- ١١ - هجرات العرب الجنوبيين
- ١٢ - هجرات إسلامية
- ١٣ - هجرات أرمنية (محتملة)
- ١٤ - هجرات لسالات عريضة الرؤوس (محتملة)
- ١٥ - » إلى شرق إفريقيا
- ١٦ - » إلى إقليم الملايو

-
- ١ - طلائع الحاميين
 - ب - الساميون القدماء
 - ح - الساميون الجنوبيون
 - د - الجلا
 - هـ - الصوماليون

توزيع الجماعات في سوريا ولبنان

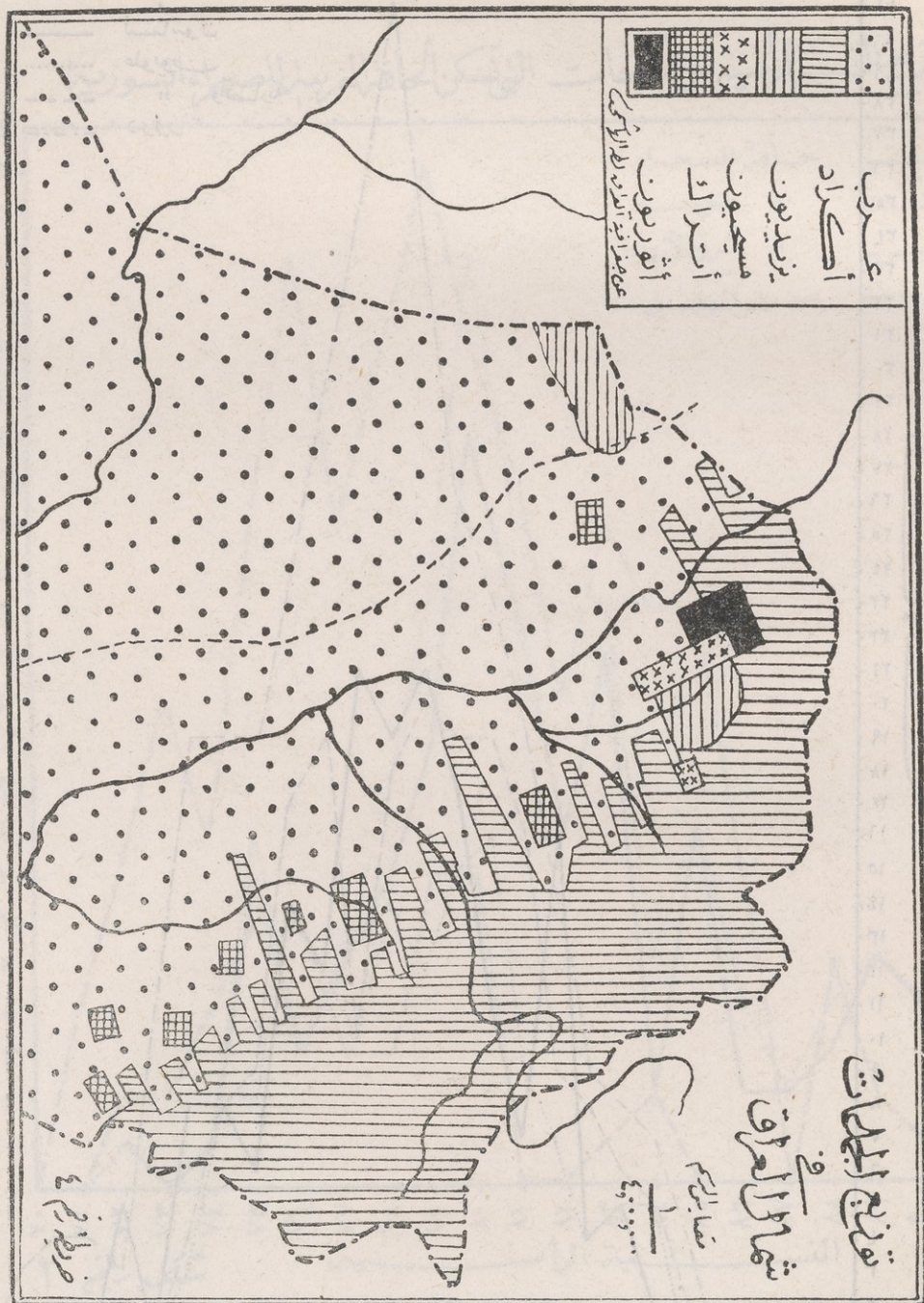


مقياس الرسم ١٠٠ كيلومترا
سوريون عرب (بدو) متاولم ترك

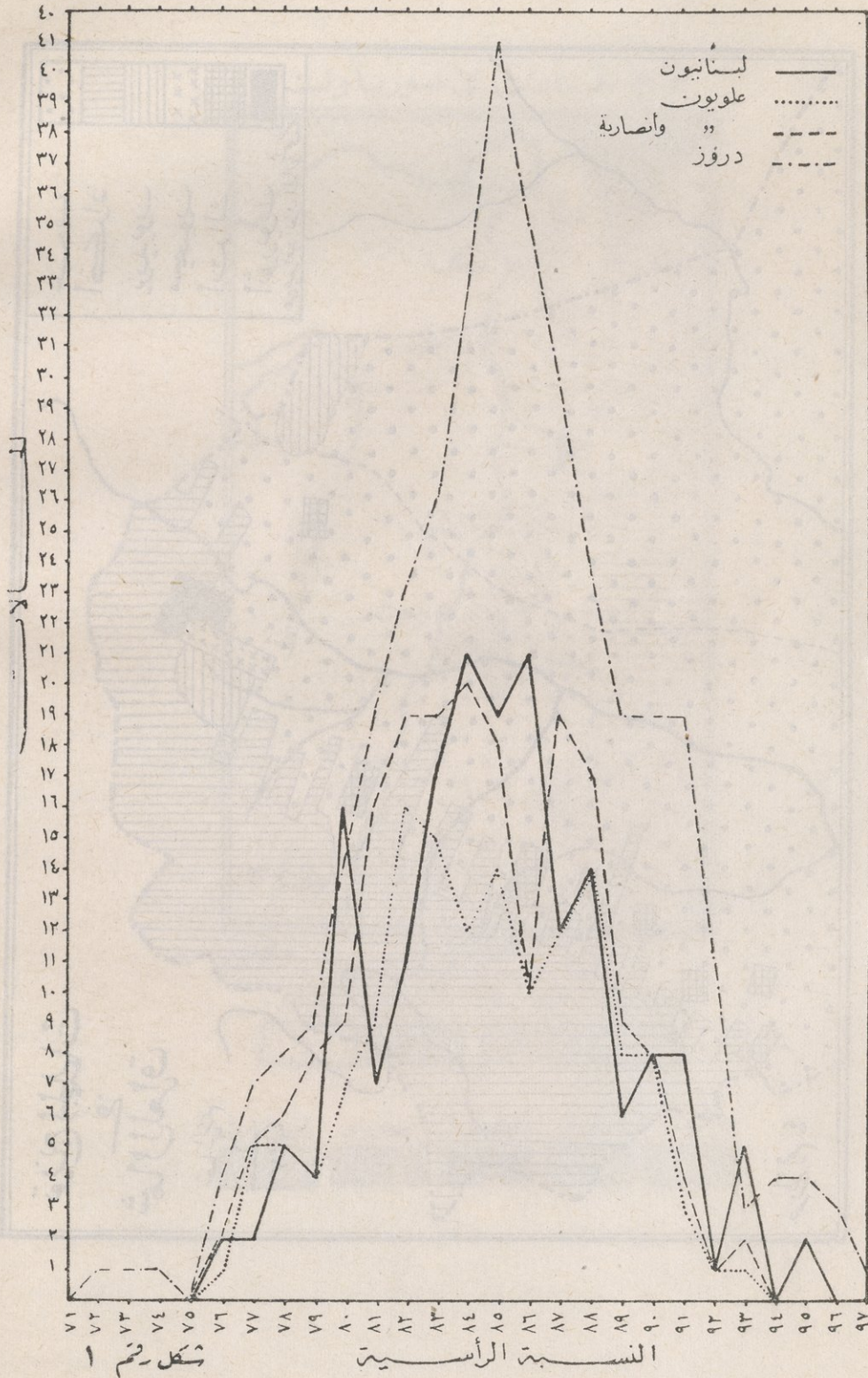


موارنم درونر اسماعيلية أكراد أنصاريين

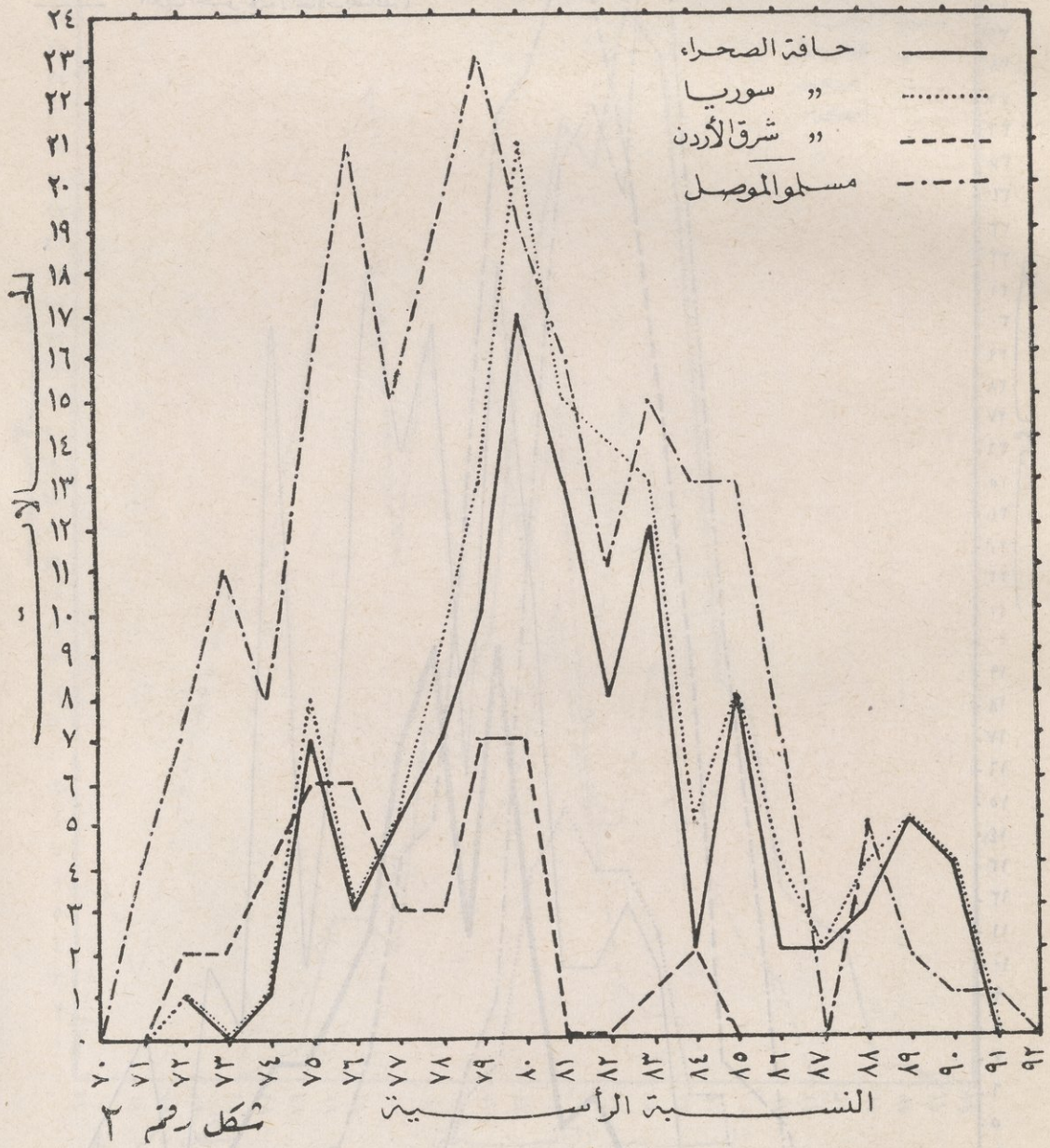




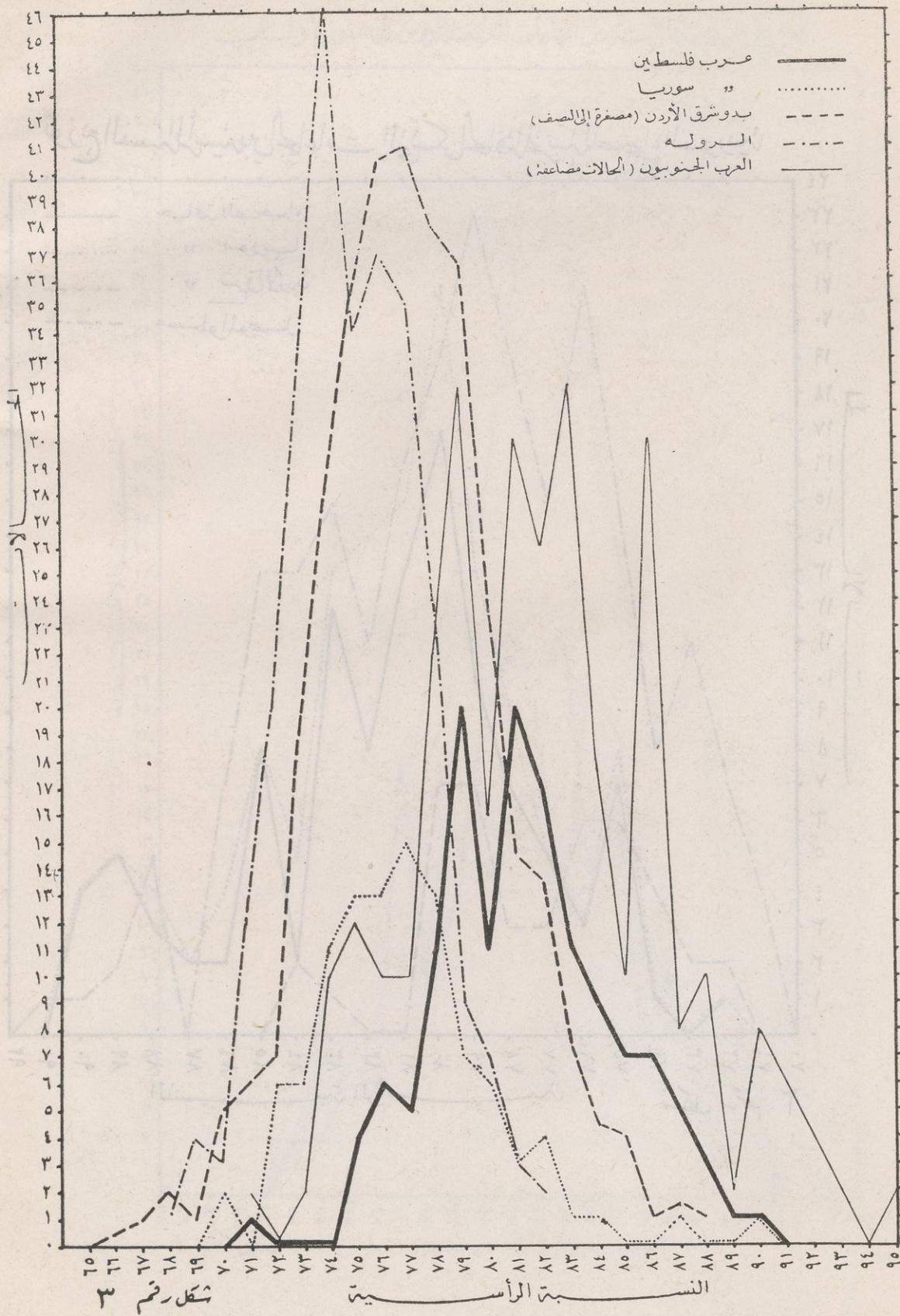
توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات المرضية الروس في سوريا ولبنان



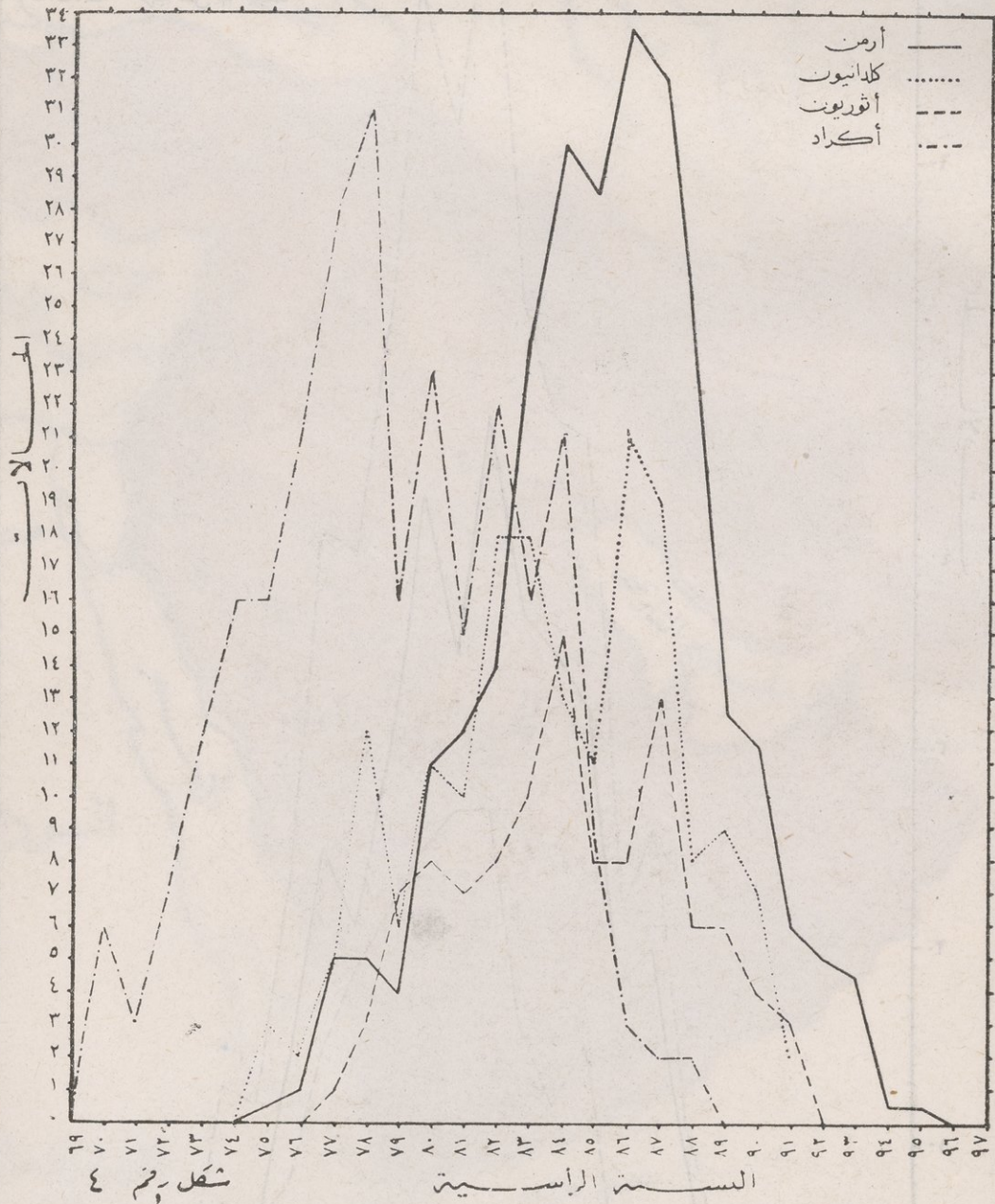
توزيع النسب المئوية للجماعات التي تسكن الحافة الغربية للصحراء السورية



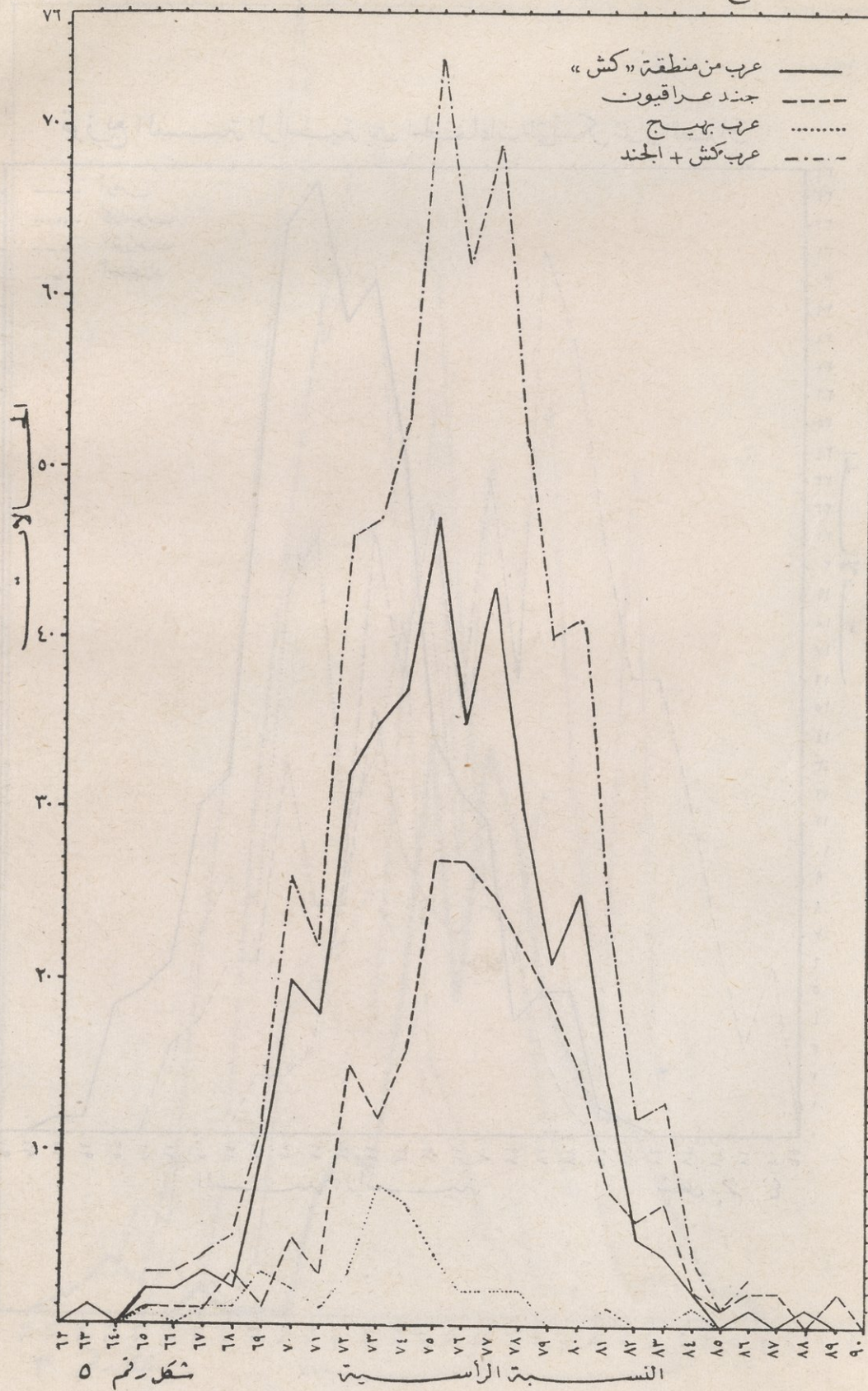
توزيع النسبة المئوية للجماعات العربية البدوية في سوريا والأردن وفلسطين وجنوب الجزيرة العربية

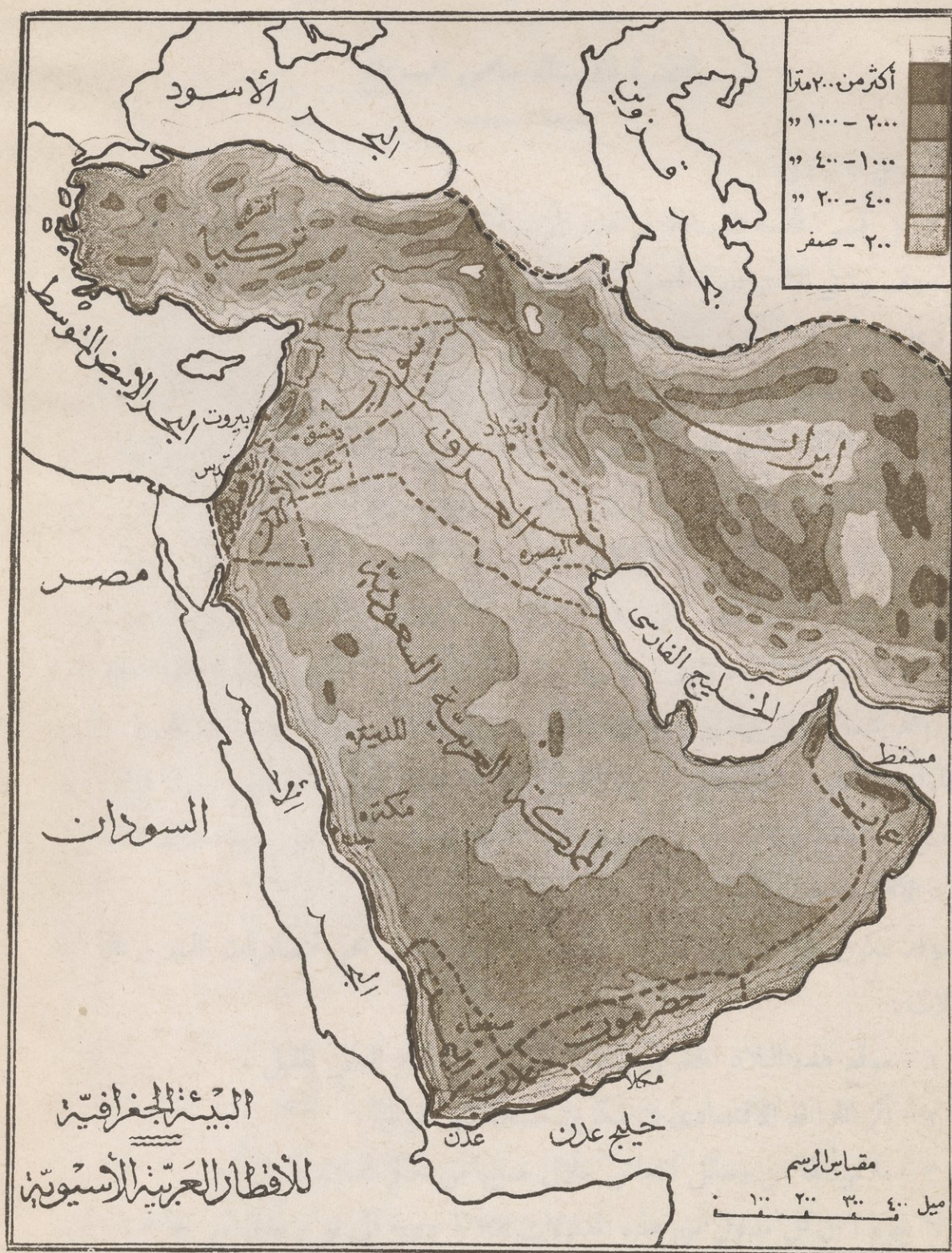


توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات القسكن شمال العراق



توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات التي تسكن وسط العراق







الحياة الاقتصادية في الاقطار العربية

للمحاضرة الأستاذ سامي السراج

سيداتي ، سادتي :

تفضل قسم الخدمة العامة في هذه المؤسسة العلمية المباركة الخطوات والغدوات ، الريانة بحجم المعارف وشتى الأعراف ، فخصني بالدعوة إلى إلقاء بحث عن « اقتصاديات البلدان العربية » ظناً كريماً منه اني من مآهيل رجاله ، وحلق خبرائه ، فكان في الواقع ظن تسامح وكرم . ولقد وددت أن أرد نفسي عن هذه المهمة لأخلى بين هذا المنبر وبين من يعملونه من أفاضل راجحي الوزن، وافرى المكنة ، كاملي الفطنة ، يحسن ألا يتخلل سمعهم الفريد باحث مثلي قصير باع كز متاع قليل إمتاع . لولا ان هنالك شرفاً يغري ويستورى ، شرف الامتثال لما قضى به حسن ظن الداعين ، والمثول أمام جمع من أكرم السامعين ، فرحت أهياً بحشى عن بلاد باركت يد الرحمن ما بينها من وثاقة إحاء وأضفت عليها وفراً من القداسة والعلاء ، بلاد أنبت الله من أرضها الطيبة أكبر مجموعة من الهداة المصطفين والأنبياء والمرسلين ، فما انفكت أمم الأرض قاطبة تنظر إليها باهتمام بالغ يشمل ألوان نهضتها وجوانب يقظتها ، ناهيكم بناحياتها الاقتصادية شاغلة العنوان الدال على ظواهر نشاطها ، ومعالم أهليتها للحياة العامة ، تلك الحياة التي تمور آفاقها اليوم بنوازع التزاحم والتنافس ، والتقدم والاستباق ، وصولاً إلى الجوهر الفرد ، الذي هو مادة نشاط العصر ، وهو « الاقتصاد » .

وقد نكون على حق إذا نحن أرجعنا هذا الاهتمام البادى نحو اقتصاديات البلدان العربية

الى ثلاث :

- ١ - موقع هذه البلاد الجغرافي بالنسبة لمسرى الاقتصاد العالمي المقبل .
 - ٢ - أثر الترابط الاقتصادي في تكوين شخصياتها القومية .
 - ٣ - ما تهيأ لها من وسائل انتعاش خلال نصيبها من حكم الذات .
- لا جرم ، ان كل مدلول من هذه المدلولات الثلاثة يوميء الى نوع معين من الأهمية ، تتمتع به أمصارنا العربية في دنيا الاقتصاد العام ، فبالنسبة لموقعها الجغرافي هي بلاد تتراعى بين ثلاثة

بحور، وثلاث قارات من أكثر قارات الأرض كثافة سكان . يفرض القانون الطبيعي أن تكون عوالم هذه القارات على اتصال مستمر لمقايضة ما فيهن من خامات متنوعة وإنتاجات متباينة تساوى بين الاحتياجات المتفاوتة فتؤدي مهمة الاستكفاء ، وتعين على التواصل بين الإنسان والإنسان . فبلادنا العربية ما تبرح تؤدي إلى مدنيات العصور وحضارات الاجيال خدمات جلى فرضتها عليها الطبيعة إذ أقامت منها جسراً موصلاً بين آسيا وأوروبا وإفريقيا وأسبغت عليها قيمة جغرافية بالغة الأهمية سواء من وجهة الرقى التصاعدي للإنسان أو من وجهة الاقتصاد الكونى العام . هذا بالإضافة إلى ما تميزت به من هبات الإخراج والإنتاج ومواهب التوليد والابتكار مطبوعة بالطابع الشرقى الذى ما يزال يعد من مظاهر الاتقان والاحسان .

فمن أبلغ ما ينهض برهاناً على أهمية الاقتصاديات العربية : تلك المدنيات الشامخة التى أنشأها السبأيون، والمعينون، والحيريون، فى اليمن والبابليون، والآشوريون فى العراق، والفينيقيون فى الشام، والمصريون القدماء على ضفاف النيل، تلك المدنيات التى كانت أطول لداتها عهداً وأثبتها على الزمان خلدًا ، هل قامت إلا على تلك الخصائص والهبات ففاحت على الانسانية عطراً وزهراً ، وأفاءت على الشرق نتاجاً وثماراً، مما يحلولى ولستم أن نستنشقه من لمحات التاريخ فى تلخيص خاطف ملذ ، يطالعكم بآيات بينات من مقومات مدنياتكم الخالدات .

ففى اليمن : قد وصل علماء العصر الحالى المولعون بكشف مكنون الاخبار ، وحل رموز الآثار ، إلى كشف نحو خمسة آلاف نص يمانى قديم هدتهم إلى معرفة الشأو الذى بلغه اليمانيون فى مناحى السياسة والاقتصاد، والثقافة والعمران، والانشاء والبناء ، وما أصابوا من براعة فى الهندسة والزخرفة والملاحة، وكشف مجاهل البحار، وفى تشييد الخزانات، الفخمة والسدود المانعة ، حججاً للمياه فى مواقيت ، وأطلاقاً لها فى مواقيت . تلك السدود التى أقاموها عند منتهيات الوديان فى كثرة كاثرة حتى لقد وصفها شاعر منهم فقال مزدهياً مباهاياً :

وفى الربوة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً ترسل الماء سائلاً
وكان قوله هذا منصرفاً إلى مكان واحد من أمكنة السدود وكان أشهرها وأعظمها سد مأرب، أفاض على اليمن من روافد خيريه وفواضل بره ، ماجعل المؤرخين يسمونها باليمن السعيدة، واليمن الخضراء، وجعل الأهلين فى سعة رزق ورخاء، حال جاوزوها إلى السرف فالترف فبالغوا فى اقتناء نفيس التحف، وثمانين الاعلاق، وقدروى البجائة « جيان » أن سفن اليمن كانت وحيدة

زمنها في جوب أكتاف المحيط الهندي ، وأطراف البحر الأحمر ، وقد استنبط اليمانيون الاتجاهات من الشمس والكواكب والافلاك . وذكر هذا الباحث أن قائد أسطول اسكندر المقدوني عندما وجه الى اكتشاف بحر الهند ، وجد العرب قد سبقوه اليه ، ووجد مدناً بأسماء عربية وألفاظاً عربية على أفواه السكان . وقد أصاب اليمانيون نجاحاً في التعليم والتجارة والزراعة ، ونصبياً من الحذق كصناعة الجواشن والسيوف المشتهرة باليمانية ، وتماثيل البرونز ، وتحف العقيق والجوهر ، وزخرفة الخزف ودباغة الجلود ونسج البرود موشاة بالذهب ، وحظاً وافراً من تعدين الكروم ، والفضة والذهب ، ومعادن اقتصادية شتى ، ثبت وجودها لخبراء اليوم ، فتقدمت شركات كثيرة طالبة استغلالها ، ولكن امام اليمن الحالى يأبى منح امتيازاتها لغريب مخافة أن تطفئ مادة الاستغلال نور الاستقلال ، فتسوء عقبى الدار ، ولا بد من يوم تخرج فيه هذه الكنوز على أيد فنية عربية أو يد صديقة مؤتمنة ، فتطالع الاوساط العالمية بآثار حضارة زاخرة بالمعجبات .

وفي مصر : هل يغرب عن البال كيف أعان مركز مصر الجغرافى قدماء سكانه على انشاء حضارة من أبهر حضارات الكون ، جعلتهم يبرزون أهل الدنيا في تركيز مقومات المدنية من براعة فى فن العمارة ، ومهارة فى أعمال التعدين ، وتفوق فى اقامة الجسور والهياكل والمعابد والخزانات ، ومن نشاط فى الملاحات النهرية ، والشاطئية ، وما نشره من أضواء مدنية ساطعة الاشراق ، خالدة على وجه الزمان .

وفي الشام : إذا اتينا الى مدينتها ، ارتنا ظواهر نيرة من نشاط منقطع النظير ، فهي لم تقف عند الذى قسم لها من رقى فى هندسة المياه ، واختصاص بثروة الاشجار المثمرة ، وتعميم للغابات المورقة ، وأن اليونانيين قد أخذوا عنهم فى القرن السادس قبل الميلاد زراعات الزيتون والنخيل والاعناب ، بل جاوزت هذا الأفق من النشاط الى نقل حضارة الشام الى العالم البعيد ، فأنشأت السفن الضخمة . وجاب أبناؤها حوض المتوسط دانيه وقاصيه . وشقوا عباب المحيط الاطلسي قريبه ونائيه ، فقال المؤرخ شارم ان من حق سوريا علي العالم أن ينظر اليها بلاداً مؤسسة للتجارة ، وأول من أنشأ سفن النقل عبر القارات المتراصة وراء البحار . فامتاز السوريون بنزعة التجارة وحب الاغتراب ، وركوب متن المخاطر والاسفار ، رغم أن قطرحم وافر الخير أصيل الثروة مشهورة معادنه مكتظة بالغلال حواصله ، ريانة ببواعث السخاء أغواره ووهاده ، تهادى ببواثق الشجر جباله وآكامه ، وتزدان بكثيف الغابات حزنه وهضابه ، وكل هذا من مصادر الثروة الاهلية ذات الشأن

أما العراق : فقد تجمع له من حضاراته ميراث ضخم استمدت عناصرها من مميزات تربته وما توافر فيها من قوة امراع واخصاب . فاذا ارتفعنا مع تاريخه صاعدين الى عهوده الأولى ، قابلتنا أجداد متراكمة ، ومدنيات متوالدة ، هي رموز لما كان عليه من رقي فكري ، وإشعاع عقل ، وإشراق معرفة ، فمن أفق العراق انسرح الذهن البشري للتفكير في شأن الفرد ، وشأن الجماعة ، وما بين الشائين من واجبات ، فكان نتاجه شريعة حمورابي ، واضمة القواعد الأولى لتهديب المجتمع . ومن شاطئ دجلة انبعثت الآية الزاخرة بمعاني الثقافة والمعرفة تلك الآية القائلة « ان من يحذق الكتابة على الآجر يتألق تألق الشمس رأد الضحى » .

وكانت في عهد السومريين بالعراق أول محاولة لحفظ القيود والسجلات على طريقة الرسم برأس القصبه فوق اللبن الطرى يترك للشمس حتى يجف فيصطب ليحفظ ما رسم عليه ككتاب مسطور . ثم كانت أول محاولة لدعوة القبائل الى السكنى قرب الحواضر إغراء لهم على استغلال خيرات الأرض .

أليس هو العراق الذى نزل له الافادة من كنوزه ورافده أشقات الأمم كالسومريين ، والأكاديين ، والعموريين ، والعميلاميين والبابليين ، والأشوريين ، والكلدانيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، فكان مزدهم الأمم ومهبط الأقوام طلباً لخيراتهم ، أليس هو العراق صاحب العهد الذهبى الذى ورف فيه سلطان العباسيين ، فمما دخل وازدهر الملك ، حتى غدت سحابات الغيث لا تهطل فى موطن ذلك الملك الرخي ، إلا ليعود خراجها الى خزائن العراق . هذا ولا يزال العراق يحفظ بمجموعة نباتية ثمينة لأنواع وفصائل من الغلات ، كانت جاءت من حضارات الأمم الماضية ، فبادت تلك الأمم ، وبقيت هذه النباتات حية على كر القرون ، تستمد بقاءها من صلاح التربة ، ومميزات الارض ، وقد قال بعض المؤرخين « ان العراق حقيق أن يعد الوطن الأول لأهم حاصل غذائى للانسان ، إذ كان مخزن الشرق الأوسط للغلات . ووصفه هيردوتس وصفاً مستفيضاً ، ثم خشى أن يرمى بالغلو ، فأكد أن خصب الارض بالعراق فوق كل غلو وإغراق . وقارن مؤرخون محدثون بين انتاجه ماضياً وإنتاجه تالياً ، فذهبوا الى رجحانه فى العهود الاولى ، إذ استغل ناس القديم كل قطعة أرض قابلة للزراع . واستعملوا الانماء المحصول ورعاية الخصوبة أساليب كفلت لهم الحصول على ثلاثة محاصيل فى السنة . وما تزال آثار الترع التى شقوها شاخصة حتى الآن تنطق بمقدرة فنية وبراعة فى هندسة الري لم تشاهد

أوروبا مثلها إلا في القرن السابع عشر للميلاد . وكان في شرائعهم ان الأرض لا تعطى الا لقادر على استغلالها، مع معاقبة إذا أهمل حرثها، وإعفائه من أجر السنوات الثلاث الأولى وإجبار المالك على ألا يستوفى أجراً عن أرض يؤجرها لغرس النخيل الا بعد انقضاء أربع سنوات يتم فيها الغرس ويبدو الغراس .

وظل هذا الازدهار يسود العراق حتى قبيل الفتح الاسلامي ، إذ فاض دجلة فيضاً مدمراً جرف السدود والترع ومرافق الزراعة ، ثم أدركها عهد عمر بن الخطاب فأعاد المنشآت ، وعمر السدود ، فبلغت المساحة المزروعة في زمنه ، ما يغل مقدار ٣٦ مليون جريب أي ما يساوي ثلاثة ملايين فدان ، وبلغت الجباية عنها نحو مئة مليون درهم .

سيداتي ، سادتي :

من هذا العرض الموجز لتاريخنا الاقتصادي ، تتيبنون قيمة اقتصاديات هذا الشرق العربي ، ومدى الارتباط بين الماضي والحاضر ، ومسيرها معاً في موكب المستقبل ، على أسس تتجدد بتجدد الأزمان والأحداث .

معالم الوحدة : فالواقع الذي لامرأ فيه ، ان الطبيعة نسجت من أجزاء هذا الشرق العربي « وحدة اقتصادية » كاملة الأوصاف والمزايا متحدة المقومات والمشخصات ذلك ان العوامل الجغرافية المؤثرة ، والهبات الاقليمية المتميزة ، وما بين هذه الأجزاء من إرث تاريخي ، ومشاركة اجتماعية ، ومشكلة في العادات ، والميول ، والأذواق ، والآراء ، وما يتلو ذلك من اتصال الحد بالحد ، والقديم بالقديم ، وتنوع في خصائص الارضين ، وتفاوت في درجات الحرارة واختلاف في قابلية الانبات من شأنه أن يشد روابط هذه الاقطار شداً محكمًا ، ويجعلهن حلقة اقتصادية مفرغة ، صنع الله الذي أتقن كل شيء .

فمزايا الأرضين ، ترينا كل قطر في الشرق العربي يختص بميزات يتفرد بها عن أشقائه تفرداً يفرض المبادلة والمقايضة بين الأشقاء فرضاً ملزماً . فمصر مثلاً ذات سهول منبسطة منضرة برى دائم ، يغدقه عليها نيل مبارك الروحات ، لا يكثر في اغداقه طوال فصول السنة ، وهي ذات شمس ساطعة الضوء ، بادية الاشراق ، تساعد على سرعة الادراك ، والقطاف ، مع كثرة الوفرة والمحصول ، بينا بلاد الى جوارها ، تمتد نحو الجنوب والشرق ، ونعني بها بلاد الشام فلسطينها وأردنهما ولبنانها وسوريتهما الداخلية ، بما فيها من غوطات ورساتيق ، واغوار ، ونجود ، وجبال مشمخرات ، وغابات

ملتفات هي أصقاع قليلة الدفء ، مكفهرة الشتاء ، مبرقة السماء ، يوافيها الغيث بمقدار قد يكون فيه غناء ، وقد يكون منه عناء ، وهنا تظهر ثمرات زراعتها مبعثرة على العواصم مستأنية تارة ، ومتأخرة تارة ، في حين أن زراعات مساقط النيل تظهر رتيبة مبكرة ، وبيننا العراق كذلك لاهب الشمس في الجنوب ، قاصرهما في الشمال ، ينضج أجود تمور العالم ، وأطيب الغلات ، تنبجس من ينابيعه ملايين الاطنان من الذهب الاسود السائل فتتغنى ميزانية العراق بجمال رفده ، وجمال قده ، ذلك المعدن الزنجي ، الذي أصبح معشوق الدول ، لأنه المعدن الذي في كثير من الدول لا يجدونه ، والسواد المحجب الذي في أرضهم يفقدونه ، ألا وهو النفط سيد العالم اليوم .

ان ذاك التفاوت في مواقيت الانتاج ، وذيالك التنوع في طبائع الفجاج ، يجعل كل بلد عربي مكملًا لجاره ، ويخلق من الجارات جميعاً وحدة اقتصادية تكفل ما اشترطته التجارة ، من يسر في الوقت ، وسرعة في النقل ، وقلة في الاكلاف ، وتلك دعائهما الأولى .

إذن لقد اصطاحت الطبيعة نفسها على تكوين هذه الوحدة ، ودعمتها بجماع مؤثرات المصلحة المشتركة ، عدا عوامل أخرى روحية ، وخلقية ، أحدثت مشابهة في المستوى الفكري ، والمستوى الذوقي ، عند جميع سكان الشرق العربي ، يفترق قليلا ويتحد كثيراً على أشد ما هو متحد في الامم السكاملة التكوين .

وهل يفوتنا هنا أن نذكر في معرض التدليل حقيقة قرررها بعض علماء الأجناس ، فقد أكدوا وحدة الجنس بين أقوام غرب البحر الاحمر وأقوام شرقه ، فقالوا عن هذه الوحدة انها عريقة في القدم ، تأصلت منذ تطور المناخ الجوى بين الحد الأقصى للرطوبة والحد الأقصى للجفاف . كما قرر سياق التاريخ أن الزخوف الى الشرق أسيوية كانت أم غربية ، قد اتفقت على اعتبار بلاد الشرق العربي وحدة . فاذا أغار مغير من الشرق فامتلك بلاد كندا والشام ، سرعان ما يهرع نحو وادي النيل يمتلك مراحه ومغانيه ، ومرافقه وثغوره ، تكلمة لفتحها الاقتصادي . وعلى النقيض إذا زحف زاحف من الغرب نحو مصر لا يعد زحفه ناجحاً إلا حين ينشمر صوب الشام فالعراق يمتلكهما للقصد ذاته . كان هذا رأى العالم القديم وها هو ذا رأى العالم الجديد يتبدى خلال هذه الحرب الدائرة ، فقد أرتنا خطة الدفاع عن مصر مبتدئاً من مراکش غرباً الى أقصى العراق شرقاً ، ومن الشاطئ الهندي جنوباً ، الى بلاد الاناضول شمالاً . كما أرتنا مصلحة الجيوش اقتضاء انشاء إدارة موحدة لضمان الميرة ، والمثبونة لسكان الشرق الاوسط والفيالق التي فيه على

قواعد التبادل بين أقطاره ، وعلى هدى الناموس الطبيعي الذي لا تتغير موجباته . وكل خطأ اقتصادي وقع فيه الشرق كان منشأه الخطأ السياسي في فصل أقطاره ، وتبضيع أقطاره ، وتنويع أفكاره . وما علاجه إلا وحدة النظم الاقتصادية بين هذه الأصقاع ، وانها لأمنية توشك أن تتحقق في ظل فاروقنا العظيم على وجه يبعث مرامى جده الكبير الذي اتجه بقلبه وسيفه الى تحقيق حلم الأجيال فاستلحق السودان وبلاد الجزيرة واثنتى نحو الشام ، فأقبلت منقادة الى جيش ابراهيم وهدفها هدفه ، من إقامة وحدة مندمجة في أمة متمازجة يسودها نظام اقتصادي عام . وهاهو الحفيد الأعظم يعمل عمل جده الاكبر على هدى الحق والرشاد ، حيا الله الفاروق .

سيداتي ، وسادتي :

لقد آن لى الآن - بعد إلماعنى الى نصيب بلداننا العربية فى التعاون الاقتصادى الانسانى وخدمة الحضارات ، والوضع التكوينى الذى خلق منها وحدة هى تراث الماضى وثروة المستقبل - لقد آن لى أن أنتقل بكم الى بحث أوضاعها الاقتصادية الحاضرة فأقول : لم يكن للبلاد العربية حتى ختام الحرب الماضية وضع منفرد يمكن أن يتناوله الباحث ، فقد كانت هذه البلاد ولايات ومتصرفيات تابعة للدولة العثمانية مندمجة فى اقتصادها العام . وإذن لم تكن لها نظم اقتصادية خاصة تشكف بأشرفها على شئون نفسها كماهى الحال فى الأمم الأخرى . فكان الفرد جزءاً من آلة الدولة التى تسيطر على مجموع الأجزاء وتوجهها إلى غرض الدولة العام وهو حفظ سلطانها وتوطيد هيمنتها فيما ترى استبقائه أو استلحاقه من أوطان . وكان الفرد والحالة هذه بحاجة إلى أمان من الزمان ليستعمل فى صناعته أو تجارته أو مهنته ما يستعمله الآمن المطمئن من نشاط وكد وتوسع وامتداد . فلما لم يجد من زمانه هذا الأمان ، وكان جهاز الدولة متحركاً فى دائرة الغزو والدفاع ، وتجييش الجيوش ودرء الهمم ، ظل الفرد قلقاً منهوب الطمأنينة مسلوب الاستقرار يدور فى محيط حركة الجهاز دوراناً آلياً لا تجدى فيه أعمال الفكر أو تحوير الطريقة أو تعديل الأسلوب . وبذلك حرم رجل الشرق العربى من الركنتين الركيزتين لنشاط الصناعة والتجارة ، وهما اطمئنان العامل الى زمانه وحرية من دورانه ، كما حرم الشرق العربى ذاته من ذاتية دولية تعلو الحواجز فى طريق الوارد الأجنبى ، وتمنح المصادر الوطنى شتى التسهيلات والمعونات ، لتربو الثروة الأهلية وتزيد . ثم بدأ أن يكون للبلاد العربية شأن اقتصادى خاص منذ أن انفصلت عن الدولة التركية وأصبح لواردها وصادرها إحصاء تعرف أرقامه

وتحصى أيامه . ومهما يكن من أمر القيود التي فرضت على هذه البلاد ، وما قام بغية التحمل منها ، من ثورات وقلاقل ، فالواقع ان الحال الاقتصادية أخذ سبيله الى التكون فالظهور مطبوعاً بطابع البلاد نفسها ، ولو لم يكن باشراف أهلها . وبذلك كان الاقتصاد طيلة ربع القرن الماضي متصلاً بالسياسة ومنفصلاً عنها بعض الشيء ، متأثرة بالتطور العالمي بعد الحرب المنصرمة ، سواء في التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو في حركة التصدير والاستيراد .

ولما كان العالم تلك الفترة في شبه ثورة صناعية ، إذ انقلبت معامل الحرب الى معامل انتاج وإخراج ، دبت الحركة في أوصال الشرق العربي ، فكثر استيراد الآلات من الغرب ، وطارَت بعثات الطلاب اليه تتلقى علوم الميكانيكا وهندسة الآلات ، فما مضت سنوات حتى استعاض عن السواق بالمكائن الرافعة للمياه ، وتحولت المغازل والمناسج اليدوية الى دوران بالكهرباء ، وحل الأسلوب الحار محل الأسلوب البارد في صناعات الصابون ومعاصر الزيتون والمطابع ، وعم الرى الأرضى المرتفعة عن مسايل المياه ، فصعد الانتاج الزراعى والصناعى صعوداً لافتاً للأنظار . مثال ذلك ما قدمته لنا إحصائيات العراق لسنوات ما قبل هذه الحرب ، فقد قررت أن زيادة الغلات كانت سنة ١٩٣٥ من الشعير وحده بمعدل ٣٥٩ في المئة عن مثلاً سنة ١٩٣٣ ، ثم صعدت الزيادة مرة أخرى سنة ١٩٣٦ فكانت بمعدل ٢٧٣ ٪ عن مثيلتها في السنة السابقة ، كما أشار الإحصاء إلى مضاعفة الوارد سنة بعد سنة وخصوصاً في مواد الحديد والآلات والمكينات المجلوبة ، مما جعل الصادر العراقى يرتفع عاماً فعاماً بنسبة عالية تومى إلى توسع الانتاج . فقد كانت صادراته سنة ٣٣ / ٣٤ بقيمة ٢٨٧٤٠٠٠ دينار فارتفع في السنة التالية الى ٤٣٠٠٠٠٠ ، وفي سنة ١٩٣٧ الى ٥٥٦٩٠٠٠ دينار . ومن الامثلة أن القطن لم تكن له في العراق وسوريا زراعة تذكر فراحت تتسع فيهما معاً ، فأصدر العراق منه لليابان سنة ١٩٣٧ ما قيمته ٢٠٤٠٠٠٠ دينار ، كما بلغت مساحته المنزرعة في سوريا ٣٢٨٤٠ هكتاراً آخذة في الزيادة . وقد دخل القطن في عداد الموارد المستجدة في كلا القطرين ، أما إحصاءات سوريا فقد أرتنا علامات أخرى على نشاط حركتها الاقتصادية انها أصدرت من الصوف وحده سنة ١٩٣٧ ما قيمته ثلاثة ملايين ليرة ، يقابلها قيمة ١٢٤٦٠٠٠ ليرة لصادرها منه سنة ١٩٣١ ، وقد كان واردها سنة ١٩٣١ بقيمة خمسين مليون وصادرها بقيمة ١٢٠٠٠٠٠٠ ، أى بعجز قدره ٣٨ مليون ليرة سورية ، فلما جاءت سنة ١٩٣٦ صعد صادرها الى قيمة ١٦ مليون وهبط الوارد الى ٢٨ مليون ، وبذلك نزل العجز

الى ١٢ مليون بدل ٣٨ مليون، كما دعت حالتها الاقتصادية بأعمال إنشائية طيبة الاثر، إذ قامت بتوسيع روافد المياه وتوليد قوى كهربائية، قتم ايصال المياه من مقاطع نهر العاصي الى ما يروى مساحة ١٥٦٠٠ فدان بين نهر اللباني ما أصبح يروى ٩٠٠٠ فدان، وقد أوشك أن يتم توسيع مياه نهر بردى الذى يسقى بساتين دمشق وغوطها الكبرى ويقدم لها قوة كهربائية كافية للانارة وتيسير المحركات .

ومعظم الارقام يشير إلى تقدم الاقتصاد الوطنى فى أمصار الشرق العربى ونشاط حركتها التجارية، سواء ما كان بينها وبين البلاد الخارجية، أو ما كان بينها وبين البعض الآخر، ولا عبرة لصالح هذا القطر أو ذاك فى الميزان، بل العبارة فى أن التبادل بينهما يمضي فى مستوى عال على أن مانالته البلدان العربية من نصيب فى تقدم الانتاجات الزراعية والصناعية وارتقاء الصادر لا يزال غير واف بالمرام، فقد لبث ميزانهم مع الخارج فى عجز ظاهر إذ يزيد واردهم منه عن صادرهم اليه بمعدل يتراوح بين ضعفين وثلاثة، وهن يغطين هذا العجز من إرساليات المهاجر المالية وما ينفقه السياح والمصطافون والجيوش، أو من الهبات الخيرية والتبشيرية، كما هى الحال بالنسبة للبنان .

ولعل من أهم أسباب العجز، شبكة الحواجز الجمركية التى أقيمت فى البلدان العربية فسدت مجارى تجارتهم وحالت دون عقد اتفاقات تجارية على أساس التسامح والمودة وتبادل المنفعة، عدا ما نشب فى جوانبهم من ثورات وفتن وعدم استقرار فى نوع الحكم وفى هيئات الحكام . كما حيل دون أن يتواين سن اشتراطات لحماية صناعاتهم وتجارتهن بما يجب من خفض رسوم وإعلاء رسوم وفرض ضرائب لا يعفى منها الأجنبى دون الوطنى، وبما يتعين إحداثه من النظم وفق الغرض الذى يحىء فى مصلحة البلاد . وليس أحد يستطيع تحديد هذا الغرض مثل أصحاب الشأن الاول .

أما فى الجزء الجنوبي من بلاد الشام، ونعنى به المنطقة المسماة بفلسطين، فقد نهضت تجارتها وصناعاتها وزراعتها نهوضاً يسترعى الانتباه، فقد بلغ ورق النقد المتداول فيها حتى سبتمبر سنة ١٩٣٥ نحو ٧ ملايين جنيه، أصاب الفرد منه ٦٣٠ قرشاً، يقابلها ١٢٦ قرشاً نصيب الفرد بمصر فى التاريج ذاته، وبلغت واردات ميزانية تلك السنة ٥٦٠٠٠٠٠ جنيه بزيادة مليون جنيه عن سابقتها، فكان هذا عنوان زيادة الدخل ومضاعفة الانتعاش . لولا أن سنة ١٩٣٧ جاءت

بنقص مليونين ، وسنة ١٩٣٨ بنقص ثلاثة ملايين من الجنيهات بسبب ماعرا البلاد من اضطراب وقلق أوجبا للمرافق العامة شللا ظاهراً . على أن ذاك الانتعاش لم يكن مرتكزاً على قواعد اقتصادية ثابتة ، بل على عنصرين طارئین هما رسوم الهجرة ورسوم بيوع الأرضى . وكلا السببين قد أدى إلى إيذاء الاقتصاد الوطنى ، إذ أفقد البلاد نعمة الطمأنينة ، وهى خـميرة الأرض ، باقحام قوم دخيل على قوم أصيل ، فكانت الفتن وكان انعدام الرخاء ذاته لأنه لم يكن مستنداً إلى أركان الاقتصاد .

أما فى المملكة السعودية فالوضع مختلف فى الشكل والجوهر . لقد كانت هذه البلاد تستورد من الخارج معظم احتياجاتها نظراً لفقر إنتاجها الزراعى والصناعى وضعف مادتها التجارية ، إذ ليس فيها غير صناعات يدوية بدائية من نوع ما يصنعه المرء لنفسه أو العائلة لسد احتياجاتها ، كصناعة الأبسطة والعباآت والاخراج والاعدال وما أشبه ، فلم تتميز تلك البلاد الى بضع سنين خلت إلا بشىء واحد هو انسياب النقد اليها من كافة فجاج الارض عن طريق الوافدين لأداء فريضة الحج . ويقدر ما يتركه كل حاج فى البلاد بمتوسط عشرين جنيهاً ، ومجموعه بليونى جنيه . الا أن هذا النقد المنساب يعود ادراجه الى الخارج ثمناً لأقمشة مصنوعة ، ومواد غذائية ، وأدوات معدنية وأدوية ، وسيارات ، وما الى ذلك ، لكن هذه المملكة تميزت أخيراً عن شقيقاتها بمرق من أعظم مرافق الاقتصاد على الاطلاق . وهو الاستقلال المطلق ، فقد أتاحت لها نعمة الاستقلال توسيع الزراعات المختلفة فى مناطق عسير والاحساء وخصوصاً منطقة الخرج ، حيث يجرى استصلاح مساحات تقدر بعشرة آلاف هكتار ، وتهيئة الادوات والمكينات اللازمة لريها مع جهد واسع لتحسين أنواع المحاصيل البسيطة ، كالرمان والبطيخ والمواالح والخضروات ، وإنتاج أنواع من القمح الجيد والشعير والاذرة والشمش والاعناب ، كما أتاحت لها استغلال معدن البتر فى مهد الذهب ، وفجرت لها مادة النفط من عدة أماكن بواسطة من استقدمتهم من مهندسين وأخصائيين ، فأنشأت معامل لتكريره وتصفيته ، وقد ضاعف المسئولون نشاطهم فى حفر الآبار واستنباط البترول حتى غدت بئر واحدة من هذه الآبار تغدق من النفط فى اليوم الواحد ما يعادل نحو ٢٠ ألف برميل أو يزيد . ولقد حدثنى كبير فى المملكة السعودية عن سعة وفرة هذا النفط المبارك ، فقال إن بئراً واحدة من الآبار المكتشفة تكفل من اخراج يوم واحد حاجة كل سكان المملكة من البترول ومشتقاته لعام

كامل . وقد أخذت الشركات الأميركية تهيب مشروعات من أضخم مشروعات العالم يرمى الى اقامة معامل ومصافي لتكرير نفط الاحساء والبحرين والكويت تستطيع بها تكرير ٢٥٠ الف برميل في اليوم ثم انشاء أنابيب توصل البترول المصفى الى حوض البحر المتوسط عند ثغر الاسكندرية، فبارك الله استقلال هذه المملكة ، وبارك استغلال معدنها السيل ، وحيا مليكها الرئبال

حضرات السيدات والسادة

لقد تجنبت ايراد الارقام وسرد الموازنات لجودها وعسر هضمها عن طريق السماع ، الا ما أوجبه الاستشهاد لاثبات حقيقة ودعم برهان . ولان المامة كهذه لا تتسع لأكثر من اللماع الى المقاصد الآتية

- ١ - استذكار مجدنا الاقتصادي الذي طوته العصور والاحداث .
 - ٢ - ما يتركه في نفوسنا وحي هذا الاستذكار من وجوب متابعة واستمرار .
 - ٣ - ما تتمتع به بلاد الشرق العربي من قيمة اقتصادية عالمية .
 - ٤ - حاجتنا الى الاستقلال نحمل به اقتصادياتنا فتمضي صعودا نحو الرقي .
 - ٥ - حاجتنا الى التنظيم الاقتصادي بما يمكننا من مجارة الاقتصاد العام .
- سيداتي سادتي .

ان وطنية الشعوب صنفان . اعتقادي وعمل ، فعمل بغير ايمان ، لهو وبهتان وايمان بغير عمل موت ، على مهل . علمنا أن نصل حلقة الماضي بحلقة الحاضر ليصح لنا القول .
هناك المجد معقود الاواخي وثم المجد مضروب القباب

مكانة المرأة في البلاد العربية

لحضرة صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوي

سادتي ، سيداتي :

دعاني جناب الاستاذ الدكتور كليانند، مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية، إلى إلقاء كلمة عن (مركز المرأة في البلاد العربية) ، ولما كان شأن المرأة في كل بلد يهمني، ويطيب لي التحدث فيه ، شكرت لجنابه حسن ثقته بي واهتمامه بأمر المرأة العربية ومركزها الاجتماعي الذي كرس حياتي لخدمته - ولييت شاكرة دعوته رغم ان حالتي الصحية ما كانت تسمح لي ببذل أى مجهود فكري - فمعدرة إذا كنت لم أستطع وفاء الموضوع حقّه، وإذا لم تساعدني صحتي على إلقاء كلمتي بنفسى ، واني إذ أنيب في القائها حضرة السكاتبة الفاضلة ، والمحاضرة البليغة الاستاذة أمينة السعيد ، لوثاقة من أنها سترج بالقائها، أضعاف ما كانت تربحه بالقائي .

سادتي ، سيداتي :

إذا توخينا الصراحة في تقرير الواقع حاولنا عبثاً تحديد مركز المرأة وإثبات مكانتها وحقوقها في أى بلد وبالأخص في عصرنا هذا - عصر القرن العشرين العجيب المليء بالمفاجآت الخاطفة والتقلبات السريعة - هذا العصر الذي قام على تقديس المادة وإنكار حقوق الانسان وحرياته وتبجيل القوة الغاشمة - عصر الاختراعات الهائلة التي أنتجت قوة العقل البشري، وسخرها الرجل في الهدم والتخريب بدل البناء والتعمير من أجل مطامع سياسية رخيصة ، وزج بالمرأة في ميادين الحرب راغبة أو راغمة موهماً إياها انها بهذه المشاركة قد نالت كل شيء وفي الحقيقة انها لو خيرت بين حقوقها وبين سلام العالم لما ترددت في التنازل عن تلك الحقوق لانقاذ البشرية من كوارث الحرب ومصائبها .

سادتي ، سيداتي :

يظن الناس ان المرأة الأوربية بخوضها غمار هذه الحرب بجانب الرجل قد نالت حقوقها السياسية كاملة، وفي الحقيقة انها سيقّت الى هذا الميدان ، كما يساق الجندي، خضوعاً للأحكام العسكرية، دون استشارتها في إشعال نارها - واني لأرى في هذا نوعاً جديداً من الاستعباد ، ويؤيد قولي

هذا تلك الضجة التي أثبتت في إنجلترا وكندا في هذا الشأن ، وما نقرأه حالياً في بعض الصحف من أن المرأة الاوربية يجب ألا تظن انها بذلك قد وصلت الى كل شيء ، بل عليها أن تعود الى بيتها وأولادها بعد أن تضع الحرب أوزارها - وهكذا أيها السادة شأن الرجل مع المرأة في كل العصور ، يدينها وقت الحاجة اليها ، ثم بعد ذلك يقلب لها ظهر الحجن - وسترون أنها رغم اشتراكها في الحرب فعلياً ، لن يؤخذ رأيها في إعادة تنظيم العالم بعد انتهاء هذا النضال العالمي .

سادتي ، سيداتي :

ان عظمة كل أمة إذا كانت تنسب لكفاءة رجالها ومقدرة أبنائها ، إلا أن مقياس تلك العظمة وينبوع تلك المقدرة هي المرأة ، واضعة الحجر الأول في أساس المجتمع ، فهي المنتجة ، والمربية ، والمحفزة لهمم الرجال ، هي الأم التي وضعت الجنة تحت أقدامها ، وقال فيها العلماء والمفكرون النزيهون أقوالهم الخالدة ، مثل ييكسنس فيلد الذي قال « المرأة هي روح الانسان التي تجعله يقول ساء كون عظيماً ، ولكن عطفها هو الذي يجعله غالباً عظيماً » . أو كيشليه الذي قال « من القواعد المقررة ان عظماء الرجال يرثون عناصر عظمتهم من أمهاتهم » . ولما سئل أرسون ما هي الحضارة ، قال « هي نفوذ النساء الطيبات » . ومع ذلك نرى معظم الرجال يسرهم إنكار هذا الفضل ، وعدم الاعتراف للمرأة بحقوقها في المساواة ، لا اعتقادهم بأن الرجل يفوقها عقلاً وقوة . ولا ثبات نظريتهم استندوا على أبحاث بعض العلماء والفلاسفة في تكوينها وتركيبها . وكما سرهم أن تمخضت تلك الابحاث عن زيادة بعض جرائمات في وزن جسم الرجل ونحى وقلبه ، وبذلك قرروا ان المرأة أقل من الرجل قوة وإدراكاً وعقلاً . ونسوا ان هذه الفروق ناتجة عن حالتها العيشية ، وما تحملته في القرون الماضية من الاجحاف الذي نزل بها والضغط على حرياتها ، وانها ظلت أجيالاً متتابعة قابضة في عقر دارها ، محترقة من الرجل ، صاغرة لأوامره ونواهيها ، هذا فضلاً عما حملتها به الطبيعة من أعباء مرهقة . هذا وفي حالة ما إذا خالف الواقع تحليلاتهم وتقاريرهم المفرضة ، وظهر في بعض النساء من القوة والتفوق والنبوغ ما يضاهاى قوة الرجل ونبوغه ، ويخالف أوصافهم لها ، اعتبروا ميزاتها شذوذاً ، ونبوغها فجوراً ، ورموها بالخداع والغدر والخيانة . وبلغ بهم الظلم والجور الى قتل بعض النساء النابغات كجان دارك ، وأباتيا الفيلسوفة الشهيرة بحماها وعلمها وأدبها وعفتها التي تبوأ أعلى مركز في كراسي التدريس بجامعة الاسكندرية سنة ٣٧٠ ، فأثارت غيرة معاصريها من العلماء والفلاسفة ، فخرض بطريك الاسكندرية (سيريل) الشعب عليها .

فانتظروها أمام بيتها ، وهي راجعة من الجامعة ، واتفقوا عليها ، ومزقوها إرباً ، وطافوا بلحمها في المدينة ، ورموه للكلاب . لأنها تجرأت وقامت بدعاية لمبدأ علمي جديد .

سادتي ، سيداتي :

ظلت الأمم القديمة في مختلف العصور تستعبد المرأة وتستبد بها ، وتبسط سلطان الرجل ووصايته عليها ، حتي كانت في بعض البلاد تنقل من سلطة والدها الى سلطة بعلمها . وإذا مات زوجها ، أصبحت تحت وصاية ابنها الأكبر ، أو تحت تصرف أهل زوجها الواحد بعد الآخر طول حياتها . ففي بعض بلاد الشرق الأقصى كالهند واليابان والصين وغيرها ، كانت التقاليد تقضي بأن تتبع المرأة زوجها في الحياة وفي الموت ، لأن شرائعهم وأديانهم كانت تقضي بأن تكون المرأة ظل الرجل وصداءه ، كما كانت بعض قبائل العرب تؤد بناتها ، وكانت معظم تلك البلاد في حضارتها الأولى ، حتي البلاد الساحلية كالليونان والرومان ، تعتبر الزوجة من مقتنيات الرجل سيدها صاحب السلطة التامة عليها . تلك السلطة التي كانت تخوله حق بيعها ، واستئجارها ، وإقامة من أراد من الأوصياء عليها بعد موته ، وإعطائهم حق التصرف فيها . فكانت الزوجة تورث مع ما يرثه أهله من إرث ومتاع ، وبلغ استعباد الرجل لها أن كانت عند اليونانيين لا تستطيع الانتقال من غرفة الى غرفة في منزلها إلا بإذن من زوجها .

وفي عهد الامبراطور كلتيكس سنة ٣٠٥ كان الرومانيون يجعلون المرأة من المهـد الى اللحد في قبضة اليد (in mano) - إن مانو - حسب اصطلاحهم ، وقد قال كاتون الروماني « نير المرأة لا يخلع » .

ولم تكن نساء أوروبا في القرون الوسطى أوفر حظاً من نساء الشرق الأقصى وسواحل البحر الابيض المتوسط - ففي بدء ظهور المسيحية ، قام رجال الدين يبشرون روح الكراهة ضد المرأة بقصد توجيه القلوب إلى الحياة الآخرة - فبلغ احتقار الرجل للمرأة عندهم أقصى الدرجات ، حتي إن الرجال في مجمع باكون سنة ٥٣١ ، بحثوا في هل للمرأة نفس ، وهل تعتبر من جملة البشر - وفي عصر انتشار الرهبانية ، زاد تحمس الرجال ضد النساء للدرجة أنهم صاروا يطلقون عليهن من النعوت الظالمة أشدها وأقساها ، ويعتبرون المرأة فاسدة بالفطرة ، ويحظرون عليها التعليم - وإذا تعلمت القراءة منعوها من تعلم الكتابة - وكانوا يروضون المرأة على حياة الزهد والتقشف حتي ان نساء البيوت الكبيرة كن لا يتميزن في كيفية معيشتهن عن الراهبات ،

وكن يعضين معظم أوقاتهم بين العبادة والأشغال اليدوية - ولولا انشاء الأديرة التي فتحت للمرأة الأوروبية في ذلك العهد باب التعليم والنشاط، لما غادرت المرأة عزلتها الأولى، حتى عصر الاقطاعات الذي قام على تقديس القوة وتكريم الرجولة، وانحطت فيه حقوق المرأة في تلك الاقطاعات بتمييز الذكور عن الاناث - الا أن المدنية الاسلامية التي اكنست أوربا في ذلك العصر - وألقت نور حضارتها عليها، فتحت أمام المرأة أبواب التحرر والتعليم، وأطلقتها من قيود العبودية الظالمة، وفي ذلك قال جوستاف لوبون (فمن العرب استعار سكان أوروبا مع تقاليد الفروسية احترام الجنس اللطيف، وعلى ذلك فليست المسيحية، كما هو معروف على وجه عام، هي التي رفعت المرأة من مقامها الوضع الذي بقيت فيه حتى ذلك، إنما هو الاسلام الذي رفعها - فان أشرف الشطر الأول للقرون الوسطى ما كانوا يحفظون أقل احترام للجنس اللطيف، ويدلنا على ذلك إلقاء نظرة إلى تواريننا القديمة) هذا ما قلّه جوستاف لوبون .

سادتي سيداتي :

عاشت المرأة في العصور الخالية، محرومة من حقوقها، مسلوقة الارادة والحرية، رغم ما ظهر من استعدادها ونبوغها وتفوقها على الرجال في مختلف العصور - ظلم الرجل المرأة، وحرّمها التمتع بنعيم الحرية والتعليم - وكون منها مخلوقاً على الصورة التي أرادها، ثم قام بعد ذلك يتهمها بالنقص، وبأنها مخلوق شرير من معدن غير معدنه، فظلمها مرتين، فكان من حقها مقاومة هذا الظلم، ودفعه عنها بكل الوسائل المشروعة - ولم يكن الرجل أبداً عادلاً في حكمه على المرأة، لا في تقديره الحسن، ولا في تقديره السيء - فتارة رفعها الى مصاف الآلهة ولقبها برسول السلام، وتصور فيها الملك الحارس، ومصدر اليمن والبركة، وتارة رآها دون مستوى البشر، فحقضها الى الخضيض، وفي كلتا الحالتين لم يكن منصفاً لها، وما هذه المحاولات الا لأنه يأبى أن تستوى به، ولو تعقل لانصفها ووضعها بجانبه في ذلك المكان الذي تصبو اليه، مادامت قد خلقت من ضلعه، ليستقر التوازن العالمي، وليقوم الانسان الاجتماعي، الفرد المكون من الرجل والمرأة، بأداء رسالته الانسانية السامية في الوجود، وقد حض الله تعالى على انصافها بقوله (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة) .

سادتي سيداتي :

أردت قبل الدخول في الحديث عن مكانة المرأة في البلاد العربية أن استعرض بإيجاز

مركزها في بعض البلاد الشرقية والغربية في العالم وتقدير الرجل لها ومكانتها في الشرائع والأديان ، ليظهر لنا جلياً الفرق بين المذنبات المختلفة في العصور الحالية ، وبين مدينة العرب منذ العصور الأولى .

كان العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، بل منذ نيف وأربعة آلاف سنة ، أكثر الأمم احتراماً للمرأة ، واعترافاً بحقوقها ، وافتخاراً بشخصيتها لدرجة المباهاة بالانتساب إليها أما كانت أو زوجة أو أختاً - إذ كانوا يقدرون أدبها وشجاعتها واستبسالها ، إذا استثنينا بعض عصور التدهور والانحدار التي تأثر العرب بتقاليد الأمم المغيرة على بلادهم ، وضغطها على حرياتهم ، الأمر الذي أدى إلى تطور أخلاقهم في معاملة نساءهم بحجارة لهم أو حفظاً لكرامتهم .

وأول حضارة سجلها التاريخ ، هي تلك التي أقامها العمالة الذين استوطنوا العراق ومصر وسوريا مدة طويلة ، ووسموا مدنياتها وأنزلوا المرأة منهم منزلة عالية ، فكانت في شرائعهم تتمتع بحق المساواة بالرجل ، وقد تجاوزه أحياناً - فكان للأم المنزلة الأولى في الاجلال والاحترام ، وكان للمرأة حق مزاولة كل أعمال الرجال ، وأرق هؤلاء حضارة هم المحوريون ، نسبة إلى محوري مؤسس هذه الدولة وأول واضع للتشريع في التاريخ - وقد وضع شريعته على درجة من الرقي لم تصل إليها الأمم الحديثة في عصرنا هذا - أعطت المرأة حقوقها كاملة مع بعض قيود - كما قيدت الرجل أكثر من غيرها من الشرائع - فأجازت للرجل تعدد الزوجات على شريطة ألا يتزوج ثانية إلا إذا كانت الأولى عقيم ، أو مريضة بمرض يمنعها من القيام بواجباتها الزوجية وذلك ما نطالب به اليوم - وأباح للرجل الطلاق ، وقيدته بنفقة المطلق ، ونفقة أولادها ، وحتمت عليه عدم تطليق الزوجة المريضة وألزمته باعالتها مدة حياتها - كما خولت المرأة أيضاً حق المطالبة بالطلاق ، على أن تعرض قضيتها على الكاهن ، أو القاضي ، فيفصل أما لها أو عليها ، ولم تقف هذه الشريعة في انصاف المرأة عند هذا الحد بل ساوتها بأولادها في الميراث ، وحرمت زوجها إذا لم يكن لها منه أولاد . وهذا أكثر مما نطالب به اليوم في القرن العشرين ، وكذلك خولتها حق مزاولة الأعمال الحرة كالتجارة والزراعة وغيرها من الأعمال الأخرى ، وأنزلتها مكانة ممتازة في الأسرة والهيئة الاجتماعية . وفي عهد الأقباط اعتلت النساء العروش وضربت النقود بأسمائهن مع أسماء الرجال ، واشتركن في السيادة ، واشتهر من الملكات إذ ذاك (زنوبيا) من نساء تدمر ، التي كانت وصية على ابنها (وهب للات) في أوائل

عهد المسيحية . وكانت أنموذجا للدهاء والنشاط والاقدام. أعلنت استقلالها عن الرومان ، وتولت قيادة الجند وسارت للفتح ونشرت أعلامها وسلطانها على مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى الى أنقرة . وغيرها من الملكات الشهيرات (الزباء) ، والملكة حبشية ، وماوية التي خلفت زوجها على عرش سينا وما وراءها .

أما المرأة العربية في الجاهلية فقد كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، وعرفت بالكرم ، حتى قيل ان حاتم الطائي ورث كرمه المشهور عن والدته ، وقد كانت المرأة تشارك الرجال في الشجاعة ، ويتبعن أزواجهن إلى ميادين القتال ، ليلقين الأناشيد الحماسية ، وينقلن لهم الماء ، ويداوين الجرحى ، ويشتركن أحياناً في القتال ، ويضربن من يحاول الهرب من المعركة . ومن بين من عرفن بالشجاعة (دخنتوس) ابنة زراراة الدارمي ، و (آمنة) ابنة كليب و (كبشة) بنت معد يكرب الزبيدي وغيرهن . هذا وقد نبغ منهن في الآداب كثيرات ، فبرزت في الشعر آمنة بنت عنبية وأميمة أم تابط شرا وتماضر الخنساء . ونبغت في الطب طريفة كاهنة الميمن ، وزرقاء ليثيمة . وكذلك نبغ كثير منهن في نواحي الآداب والعلوم المختلفة . وكان العرب يعترفون بنسبتهم النابغات ، ويباهون بانتسابهم اليهن ، على عكس ما كان يفعل غيرهم من الأوربيين مع النابغات من نساءهم .

المرأة العربية في الاسلام

نزل الاسلام على الأمم العربية وكانت على جانب كبير من المدنية، وجاء القرآن مصدقاً لما قبله من الأديان السماوية فأدخل في شأن المرأة تعديلات وإصلاحات لا تحصى ، وبالأخص في الحقوق الشرعية والاجتماعية، وسوى تقريباً بين المرأة والرجل في الواجبات والحقوق الجوهرية، وان ميز الرجال على النساء درجة وسوى بينهما بقوله (ولهن مثل ما عليهن بالمعروف) ، وقد وضع حدوداً للمعاملات والواجبات المتبادلة في الزواج والطلاق وغيرها من العلائق الزوجية حافظاً للمرأة حقوقها الشرعية والمدنية ، وأملى على الأب والأخ والزوج والولد توصيات جمة ، ونهى عن وأد البنات فقال « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » وكذلك قوله تعالى « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

وبخلاف الامم القديمة التي كانت تنكر على المرأة حقوقها ، ولا تسمح لها بالارث أو الشهادة ، منح الاسلام المرأة حق التملك والتصرف والوراثة والشهادة ، ورفع من شأنها في الحياة الزوجية ، ومنع توارث النساء ، وحض على حسن معاشرة الزوجات والرفق بهن بقوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » كما حث على تكريم الوالدين ، وخاصة الأم اعزازاً لمكانتها ، وألغى فوضى الجاهلية في الزواج فوضع لتعدد الزوجات حداً ، وأقام لجوازه شروطاً تكاد تجعله في حكم المستحيل بقوله « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . ثم استدرك في مكان آخر عدم إمكان العدالة فقال « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . ومن هنا يتضح لنا انه مما يتفق وروح الشريعة السمحاء تنظيم جواز تعدد الزوجات مع ما يناسب روح العصر ومقتضيات الحياة لدرة ما يجلبه سوء استعمال هذا الحق من تعاسة للأسرة ، ومفاسد ومظالم للأولاد .

سادتي ، سيداتي :

جاء الاسلام مثبتاً لحقوق المرأة ، مكلاً لما كان ينقصها ، رافعاً لمقامها ، فازدهر شأنها في فجر الاسلام ، فتعلمت وعلمت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وحاربت في صفوفه ، وهاجرت معه ، وظلت مكانتها في رفعة وازدياد على مر العصور التالية . ففي العهد الأموي اشتهرت طبقة من النساء بالعلم والتقوى ، وسرى التعليم الى الاماء فنبغن في الادب والفنون ، كالشعر والرواية والموسيقى ، ونذكر من نساء البيوت المتأدبات سكيمة بنت الحسين بن علي التي قال فيها المستشرق الفرنسي بيرون « سيدة سيدات عصرها وأجملهن وأرقاهن صفات وأخلاقاً » وكان منزلها كعبة الأدباء والشعراء .

أما في العصر العباسي فقد بلغ نضوج النهضة النسائية أوج الكمال ، وامتلات القصور بالجاريات النابغات في مختلف العلوم والفنون . وتسربت العدوى الأدبية ، الى بنات البيوت الكبيرة ، فأصبحن عماد النهضة النسائية ، وأشهر هؤلاء السيدات العباسية بنت المهدي ، والسيدة نفيسة ، وظلت المرأة في رقي مستمر حتى منتصف العصر الفاطمي ، حيث بدأت مكانتها تتضاءل رويداً رويداً اثر انحلال الدولة ، وما لبثت أن اختفت من المجتمع .

المرأة العربية في العصر الحديث

سادتي ، سيداتي :

عمت فترة خمول الأمم واضمحلالها الاجتماعي كل بلاد الشرق العربي . وظلت المرأة في تلك الوهدة حتى أشرق شعاع نهضتها الحديثة من مصر ، ولمع أول بريق لهذا الشعاع في عهد محمد علي باشا الكبير ، رأس الأسرة العلوية المجيدة الذي رأى ان ما من نهضة لأمة الا بنهضة نساؤها ، فغرس أول نواة في تعليم البنات بانشاء مدرسة لهن ، كما افتتح مدرسة لتخريج القابلات ، حتى يقمن بكفاية المرأة في هذه الناحية . وفي عهد اسماعيل العظيم أنشأت زوجته الصغرى ، حشم أنت هانم ، مدرسة للبنات ، ولما ازداد الاقبال عليها ، أتبعتهما بثانية ثم ثالثة ، وظلت خطوات المرأة في ميدان العلم تتقدم على مهل ، حتى دوت صرخة قاسم أمين ، وتمخضت دعوته عن بداية نهضة نسائية طيبة في مصر ، وعلى مرور الزمن ، وبفضل اشتراك المرأة في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ اشتراكاً فعلياً ، وبفضل جهود الاتحاد النسائي والدعاية التي قام بها منذ سنة ١٩٢٣ بمصر والخارج ، اكتسبت المرأة المصرية حق المساواة بالرجل في التعليم الثانوي والجامعي . وأقبلت الفتيات المصريات على مناهل العلم والثقافة بتمطش وشغف ، وأحرزن نجاحاً باهراً في مختلف العلوم والفنون ، وكن في طليعة الأوائل في الامتحانات العامة ابتدائية وثانوية وعالية . وفي سنوات قليلة تضاعف عدد الطالبات في كليات الجامعة حتى بلغت خمسمائة طالبة من مجموع الطلبة الجامعيين ، منهم ٢٩٠ في كلية الآداب ، و ٩٠ في العلوم و ٣٠ في الحقوق و ١٠ في التجارة ، وما هي الا سنوات قليلة حتى شغلن في المجتمع مناصب هامة ، ومارسن مهنة الطب والتعليم والمحاماة والطيران وغيرها من المهن والاعمال الحكومية والحرّة في نجاح مستمر ، وبذلك أعدن إلى المرأة العربية قسطاً وافراً من مكانتها الاجتماعية القديمة ، وسرت روح هذه النهضة المباركة الى البلاد العربية الشقيقة التي أنجبت كثيراً من شهيرات النساء في الادب والعلم والخطابة في عصور حضارتها ، ووجدت هذه الروح في تلك البلاد مرتعاً خصباً لتنمو فيه ، ولا عجب فقد كانت من القدم مهد الثقافة والعرفان ، ومنجبة لرجال العلم والادب الذين كانوا من أول الغارسين للعلم في بلادنا . وهنا لا يسعني الا الاشادة بفضل ما قامت به مدارس الراهبات ، وما بذلته الكليات الامريكية من جهود في تعليم بناتنا منذ النهضة التعليمية وقبلها ، وأخص بالذكر والثناء قسم الخدمة العامة للجامعة الامريكية الذي لا يألو جهداً في نشر الثقافة وخدمة العلم وأهله في بلادنا العربية .

سادتي سيداتي :

أصبحت المرأة في مصر والبلاد الشقيقة اليوم تشارك الرجل في معظم وجوه الاصلاح، مادياً وعلمياً واقتصادياً ، تساعده في الحقل ، وفي المصانع وفي التجارة ، وفي الشئون الاجتماعية إذ فتحت لها أبواب التعليم على مصراعيها في المدارس الاولى والابتدائية والثانوية والجامعية ، تتعلم وتعلم فيها وحتى في الطيران كما فتحت لها أبواب العمل في الطب ، والحمامة ، والتجارة ، والمصارف ، والسينما ، والتمثيل ، والرقابة ، والصحافة ، والمهن الادارية ، كالتفتيش ، وبوليس الآداب ، والمعامل الصناعية ، وعما قريب ستفتح كلية الهندسة والزراعة أبوابها للطالبات . لم يبق إذن في مجال حياتنا الحديثة شيء لم تطرقه المرأة فيجب إذن أن تتساوى بالرجل في الحقوق السياسية ليمكنها أن تضم صوتها إلى صوته وتعاونه في جميع الاصلاحات التي يقوم بها في مختلف مراحل الحياة وأن تشارك في سن القوانين التي تنظم مرافق الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة كما شاركته المواقف الوطنية الخطيرة في مصر وفلسطين ولبنان وسوريا ، وعرضن أنفسهن للسجن والتنكيل والاعتقال والموت . وأبدن من الشجاعة ، والتضحية ، وإنكار الذات ما شرف المرأة العربية .

سادتي سيداتي . . ولو أن المرأة العربية قد استعادت بعض حقوقها الشرعية والمدنية ، إلا أنه ما زال ينقصها الكثير الذي لو منحه لاستعادت مكانتها أحسن مما كانت عليه في العصور العربية الزاهرة ، ومن أجل الحصول على بقية حقوقها المهضومة ، عقد نساء الشرق العربي في شهر ديسمبر الماضي بالقاهرة ، مؤتمرًا نسائيًا عربيًا ، اشترك فيه أكثر من مائة وخمسين سيدة من الجمعيات النسائية في مصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان وشرق الأردن ، تردد ذكره في العالم من أوروبا إلى الهند إلى أمريكا - وقد نظر ذلك المؤتمر الذي أعارته الدول الأجنبية والعروبة جانباً عظيماً من العناية والاهتمام ، في قضيتين عادلتين ، هما قضية المرأة ، وقضية فلسطين - وهما قضيتان وثيقتا الارتباط وعلى نجاحهما يتوقف استكمال النهضة الوطنية واضطلاع المرأة العربية بواجباتها كاملة نحو المجتمع ، بما يتناسب ومقتضيات العصر الحديث ولقد توخينا في قراراتنا منتهى الحكمة والتبصر حتى نصل بسهولة إلى حل هاتين القضيتين ، ولعلنا نجد من رجالنا المفكرين آذاناً صاغية لطلباتنا إنصافاً لنا ولهم ، حتى تستطيع المرأة أن تقوم بعبئها الوطني الشاق في هذه الظروف ، التي إن طالت أو قصرت ، لا شك ستتمخض عن أحداث ومفاجآت ، يحسن بالرجل ألا يتحمل منفرداً عبء المسؤولية فيها ، لأن نتائج مثل هذه المسؤوليات لن تقع

عليه وحده ، بل تقع أيضاً على المرأة التي أصبحت تشاطره كل شيء ، وعلى أولادها أبناء الأجيال القادمة .

أما القضية الأولى ، وهي قضية المرأة ، فهي تتلخص في ادخال بعض تعديلات من أجل تنظيم الزواج والطلاق والنفقة والحضانة بما يتناسب وروح الشريعة الاسلامية ومقتضيات العصر الحديث ، فلقد طالبنا بسن تشريع يلزم كلا الزوجين الخضوع لكشف طبي رسمي يثبت براءتهما من كل مرض تناسلي أو وراثي قبل الترخيص لهما بالزواج ، وتقييد تعدد الزوجات إلا باذن من القاضي في حالة السقم أو المرض غير القابل للشفاء ، المساواة بين الرجل والمرأة في أحكام قانون العقوبات الذي خص المرأة فقط بالعقاب في جريمة الزنا . وتقييد حق الطلاق بما لا يجعله أداة اضرار بالمرأة ، وبما لا يتعارض مع أصول الشرائع في حالة الطلاق أو الفرقة . وأن تعوض المطلقة عما يصيبها من ضرر بسبب إساءة الرجل استعمال حقه في الطلاق ، ورفع النفقة القابلة للحجز في مرتب الزوج الموظف الى الحد الذي يتسع للاتفاق على زوجه وأولاده ، وجعل الحضانة للأم الى سن المراهقة في الجنسين ما دامت أهلاً لها ، وبعد حد المراهقة تكون الحضانة للأصلح من الوالدين حسبما يراه القضاء لمصلحة الطفل ، والحد من سلطة الولى ، ابا كان أو جدا ، بما يجعل هذه السلطة مماثلة لسلطة الوصى .

أما في الحقوق السياسية فقد قرر المؤتمر مطالبة الحكومات بالعمل على المساواة تدريجياً بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية ، وعلى الأخص حق المرأة في أن تنتخب وتنتخب ، والى أن تهيأ للحكومات فرصة تحقيق هذه المساواة كاملة في جميع الهيئات التشريعية والنيابية ، أن تبدأ هذه بتقرير هذه المساواة في المجالس الحسبية والاقليمية وبالتعيين في مجلس الشيوخ وفي الوظائف التي يشغلها الرجل المتساوى معها في الشهادات والمؤهلات .

ولا أظن المرأة بطلبها هذا تسعى الى منحة ، فلقد أعطاهها الاسلام حق البيعة ، وبوأها منصب الافتاء ، فمن منحها الخالق حق بيعة النبي لا يجوز أن يسلبها المخلوق حق انتخاب نائب عن دائرة أوحى في الوقت الذي يتمتع فيه بهذا الحق رجل قد يكون دونها ثقافة وخبرة وفي حماية الاخلاق طالبنا بالغاء البغاء المرخص به في جميع الاقطار العربية الغاء عاجلاً ، وعدم الترخيص للفتيات بالاشتغال في الحانات .

ومن مطالبنا بخصوص التعليم ، تعميم التعليم الاجباري لمحو الأمية ، ثم العمل على ان تعهد الى

السيدات بتعليم الناشئة بنين وبنات في الطفولة ومرحلة التعليم الابتدائي ايضاً ، وان يجمع بين الجنسين في هذه السن وهاتين المرحلتين .

أما قضية فلسطين ، فقد قرر المؤتمر تأييد حق العرب في أن فلسطين دولة مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، حكماً نيابياً تمثل فيه الاكثريّة العربية - ثانياً - وقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين وقفاً تاماً - ثالثاً - مطالبة الشعوب العربية أفراداً وجماعات ، بالمساهمة المادية والمعنوية في تأييد قضية فلسطين وتشكيل لجنة عامة تمثل جميع البلاد العربية لوضع القواعد التي تراعى في تحقيق هذا الغرض ، على أن يكون لهذه اللجنة فرع يمثلها في كل بلد عربي - رابعاً - نشر الدعوة في جميع البلاد العربية للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين ، وتأليف لجان لهذا الغرض - خامساً - تأييد المؤتمر لمشروع تكوين الجامعة العربية والمطالبة بسرعة تنفيذ هذا المشروع - سادساً - مطالبة الحكومات العربية بمصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان باعادة المبعدين ، وبالافراج عن جميع المعتقلين السياسيين الذين لم تثبت ادانتهم - سابعاً - مطالبة الحكومات العربية بالتعاون فيما بينها على اتخاذ ما يلزم من الاجراءات التي تكفل منع تسرب أراضي العرب الى اليهود . وقرر المؤتمر النسائي العربي دعوة ملوك العرب ، وأمراءه ، ورؤساء الجمهوريات ، والقادرين من أبناء مصر ، وأبناء الامم العربية عامة ، الى المساهمة في تأسيس شركة مساهمة ، الغرض منها اتخاذ التدابير اللازمة للاحتفاظ بالاراضي الزراعية بفلسطين للملكية العرب ، ارسال برقية باسم المؤتمر لسكل من رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ورئيس حكومة إنجلترا ، تتضمن الاعراب عن تألم سيدات العرب مما يبدو بين آن وآخر من تصريحات تظاهر الصهيونية على حساب حق العرب الصريح ، ورجاء الرئيسين المذكورين ، باسم السلام ، ألا يتأثرا بنفوذ اليهود .

سادتي سيداتي

اننا بهذه المطالب لم نتجاوز حد المعقول والامكان ، وفي استطاعه مشرعينا اذا أرادوا سعادة الاسرة وطمانيتها اجابة المؤتمر فيما يختص بمطالب المرأة . كما ان في استطاعة الدولتين الديموقراطيتين تحقيق مطالبنا المشروعة في قضية فلسطين ، اذا كانوا يقدررون حقاً صداقة العرب والابقاء عليها - وفقنا الله واياكم الى ما فيه الخير والفلاح في ظل مليكننا المعظم حفظه الله .

النظم التشريعية وحقوق الانسان فى الاقطار العربية

لسعادة عبد الحميد بى روى باشا

ليس العهد بالكلام فى حقوق الانسان بعيداً ، فهو لا يذهب فى الماضى إلى أكثر من القرن الثامن عشر ، حين أعلنت الولايات المتحدة استقلالها فى سنة ١٧٧٦ بالوثيقة التاريخية المشهورة ، التى صدرت بهذه العبارة « إننا نرى هذه الحقائق واضحة لا ريب فيها ، وهى أن الناس خلقوا سواسية ، وأن خالقهم وهبهم حقوقاً لا يجوز لهم أن ينزلوا عنها ، وأن من بين هذه الحقوق الحياة ، والحرية ، والسعى إلى السعادة ، وأنه لتوفير هذه الحقوق وتأمينها ، تقوم الحكومات بين الناس مستمدة سلطتها العادل من رضى المحكومين ، وأنه اذا أصبح أحد إشكال الحكيم هادماً لتلك الاغراض ، حق للشعب أن يغيره وأن يلغيه » .

وكان قد سبق هذا الاعلان فى بريطانيا موثيق أربعة شبيهة بذلك ، بدأت بالميثاق الكبير Magna Charta فى سنة ١٢١٥ ، وثبتت بالتماس الحقوق Petition of Right فى سنة ١٦٢٨ ، وتلاه فى سنة ١٦٧٩ وثيقة Habeas Corpus عن الحرية الشخصية ، وختمت بقانون الحقوق Bill of Rights فى سنة ١٦٨٩ ، ولكن هذه الموثيق تختلف عن الاعلان الأمريكى فى أنها كلها لم تكن تهدف إلا إلى الحد من سلطة الملك ، وإلى العمل على إزالة أسباب التعسف والظلم الذى كان يكابده الاشراف والشعب ، دون أن تصدر عن نزعة فلسفية فى تصوير المجتمع والدولة أو رغبة فى تقييد سلطة البرلمان ، من حيث تتمثل فيه السلطة التشريعية . أما الاعلان الأمريكى فانه يشف بعباراته عن مذهب نشره كتيب ، نذكر منهم لوك وروسو ، وبين ومونتسكيو ، كان لكتاباتهم فى ذلك العهد شيوع وشهرة وأثر بالغ فى نفوس المشتغلين بالشئون العامة . وهذا المذهب هو مذهب حالة الطبيعة أو الفطرة ، والقانون الطبيعى ، والعقد الاجتماعى الذى يقوم على أن الدولة تتألف بارادة ورضى الافراد الذين لهم حقوق طبيعية ، لا ينزل عنها ولا تسقط ، مهما تقادم الزمن على عدم استعمالها . وليست هذه الحقوق سابقة فى الوجود على الدولة فحسب ، بل ان قيام الدولة لا يستطيع أن ينقص منها أو يفض

من أثرها فهي تلزم جميع السلطات التي نظمت لتولى شئون الحكم ، ليس بينها في ذلك فاضل ولا مفضول ، فالسلطة التشريعية نفسها مقيدة بها ، وتلك الحقوق مفروضة عليها .

على أنه حين وضع الدستور الأميركي التعاهدي في سنة ١٧٨٧ لم يضمن صيغة لاعلان حقوق الناس . وذهب بعض الكتاب في تعليل ذلك الى أن واضعي الدستور ، انما عناهم تدبير نظام الحكم ، وبيان الحدود في علاقة السلطات بعضها ببعض بحيث تتفاعل في انسجام وتجري في أحكام ، فلم يلقوا بالاحقوق الانسان ، وان كانت قاعدة فصل السلطات من خير الوسائل لحماية الحريات . وذهب آخرون الى أن أغراضاً عملية هي التي أملت عليهم السكوت عن إعلان الحقوق ، فقد خشوا أن يعترض أهل الجنوب على مثل ذلك الاعلان العام المطلق إذا فهموا أنه ينطوي على إلغاء الرق .

وربما كان التعليل الأدنى للصواب هو الذي قال به هاملتون في مقالاته Federalist حين كان يرد على المعارضين في الدستور التعاهدي . وهو أن الدستور نفسه ، من جميع المعاني ولكل الأغراض هو بعينه إعلان الحقوق . وذهب بعد ذلك يعدد الحقوق التي تضمنها الدستور .

على أن الاشارات المنتثرة في الدستور الى الحقوق لم يرها آخرون كافية ، بل قيل ان فريقاً من الولايات رغبت عند الموافقة على الدستور ، أن يكمل ببيان الحقوق بصورة أوفى وأكمل ، وذلك منعاً لسوء التأويل ، وقطعاً لاسباب العسف والطغيان .

وقد قدم طلب التنقيح باضافة ميثاق الحقوق « Bill of Rights » الى البرلمان منذ سنة ١٧٨٩ وأقره المجلسان وعرض على الولايات الموافقة عليه (وهي الطريقة المقررة لتنقيح الدستور) وتمت الموافقة عليه في سنة ١٧٩١ .

ويتألف هذا التنقيح من عشر مواد . قرر بها حرية الأديان ، وحرية الرأي والصحافة ، وحرية الاجتماع ، وحق التنظيم ، وحرية حمل السلاح ، إثباتاً لحق الأفراد في إنشاء مليشيا منظمة ، وضمانات متعددة من حيث القبض على الاشخاص أو حبسهم أو تفتيشهم ، أو تفتيش منازلهم ، ومن حيث محاكمتهم ، كما قرر ألا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون . وأوجب نظام المحلفين ، وعرض للكفالات ونوع العقوبات التي تقرر ، وغير ذلك من الشئون المتصلة بالحرية الشخصية ، كذلك قرر حماية الملك من النزاع للمنفعة العامة دون تعويض .

وفي العهد نفسه وتأثير الآراء والمذاهب عينها ، أقر الفرنسيون في سنة ١٧٨٩ في ثورتهم المشهورة إعلان حقوق الانسان . والموقف في البلدين قوى الشبه ، فكلهما ثائر ، أميركا ثائرة على بريطانيا ، وفرنسا ثائرة على الملكية . والإعلان الفرنسي ، إعلان لحقوق الانسان ولحقوق الأهلين . وقد صدر بأن الناس يولدون أحراراً متساوين في الحقوق ، ويظلون كذلك وأنه لا يجوز أن يكون مناط الفوارق الاجتماعية وأساسها سوى المنفعة المشتركة (مادة أولى) ، وأن الغاية من كل مجتمع سياسى هى المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية ، التى لا تسقط مهما تقدم عليها الزمن . وتلك الحقوق هى الحرية ، والملكية ، والأمن ، وحق مقاومة الظلم والطغيان (مادة ٢) ، ويلى ذلك كلام على سلطة الأمة ، وتعريف الحرية والقانون ، وحدود أوامره ونواهيه ، وبيان عن الضمانات فى شأن الحرية الشخصية ، وتأكيده لحرية الرأى ، وأحكام مختلفة عن السلطات ، والقوة المسلحة ، والضرائب .

وعند وضع دستور سنة ١٨٩٣ ضمن إعلاناً للحقوق على طراز إعلان سنة ١٧٨٩ كما ضمن كل دستور عدداً دستور سنة ١٨٧٥ أحكاماً شبيهة به ، أو إحالة إلى إعلان سنة ١٧٨٩ .

وتضمنت الدساتير المكتوبة فى البلاد الأخرى ، قديمها وحديثها ، بياناً عن الحقوق تارة يوصف بأنه حقوق الانسان وطوراً بأنه حقوق الأهلين وفى هذه الحالة تكون حقوق من عداهم وحرىاتهم ، مكفولة بالقانون الدولى العام وتكاد أحكام الدساتير المختلفة تكون واحدة فى هذا الشأن .

والدستور المصرى يتضمن فى بابه الثانى والعشرين مادة (٣ - ٢٢) فى حقوق المصريين وواجباتهم وهو يقرر المساواة فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة . لا تميز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين . ويكفل الحرية الشخصية ويقيّد القبض أو الحبس بأحكام القانون . ويؤكّد أن لا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون . ويقرر حرمة المنازل والملكية ، ويطلق حرية الاعتقاد ، ويكفل حرية الرأى وحرية الصحافة فى حدود القانون . ويعلمن حرية التعليم فى حدود النظام العام ، والآداب . ويؤكّد حرية الاجتماع . وحق تكوين الجمعيات . وحق الأفراد والهيئات فى خطاب السلطات العامة والتظلم إليها .

ومثل الدستور المصري الدستوري السوري (الباب الثاني مواد ٦ - ٢٨) ودستور لبنان (الباب الثاني مواد ٧ - ١٤) ودستور العراق (الباب الأول مواد ٦ - ١٨) .
وليس للحجاز أو اليمن دستور كما ان الجزائر وتونس ومراكش ليس لها دستور خاص .
والمقدر ان أحكام الدستور الفرنسي سارية عليها .

هذا هو شأن اعلان الحقوق في الدساتير عامة وفي البلاد العربية خاصة ، على ان أمر اعلان الحقوق لم يقتصر على الدساتير . بل قامت في بعض البلاد الغربية جماعات تعنى به ، وتدعو الناس الى الاهتمام به . وهي ترى ان اعلان الحقوق الذي وضع في أواخر القرن الثامن عشر ، وكررت أحكامه في دساتير القرن التاسع عشر والعشرين ، لم يعد صالحاً للعصر الحاضر ، فانه لم يقصد به الا تنظيم الديمقراطية السياسية التي تقوم بوجه خاص على الحريات الشخصية ، وعلى حق الاقتراع العام . وان تطور مذهب الفردية Individualism ، والثورة الصناعية وتقدم العلوم ، كل ذلك أحداث اجتماعية ذات خطر ألغقت النظر إلى ناحية أهملت في إعلان الحقوق الاولى ، هي الديمقراطية الاقتصادية ، وانه يجب لذلك أن يكون إعلان الحقوق ناصراً للديمقراطية من الناحيتين السياسية والاقتصادية معاً .

ففي أميركا اشتغلت جمعية World Citizen Association ، ولجنة دراسة نظام السلم Commission to study the organization of peace ، ومعهد القانون الأميركي American law institute وغيرها بأمر حقوق الانسان ، كما ان بها هيئات رسمية اشتغلت به أيضاً وهي National Resources Planning Board Defense ، وقد وضع كل منها مشروع وثيقة دولية عن تلك الحقوق ، أو أبحاثاً ضافية عنه .

وفي بريطانيا اشتغلت به جمعية كامبردج لأغراض السلم ، ولجنة اللورد سانكي ، وفي فرنسا جماعة تسمى Ligue des Droits de l'homme وهي جمعية قديمة كان همها الدفاع عن حقوق الانسان وتعقب ما يقع مخالفاً لها أو ماساً بها ، وقد وضعت كذلك مشروعاً يشبه في كثير من نواحيه مشروع لجنة اللورد سانكي .

ومن الهيئات التي اشتغلت بهذا الشأن في سنة ١٩٢٩ « معهد القانون الدولي » Institut de Droit International وله في ذلك مشروع أيضاً .

هذا إلى ما كتبه الكثير من الاساتذة والمؤلفين أو وضعوه من مشروعات مختلفة .

وليس من الميسور عرض المشروعات المختلفة لاعلان الحقوق ، ثم ان بينها تشابهاً كبيراً يشعر بأننا في سبيل نوع من الاجماع العالمى يتكون ببطء ، وفي أجواء وظروف مختلفة ، ويدل على يقظة في الوعي الاجتماعى لن يكون من السهل إخمادها أو تجاهلها .

وقد نكتفى للتمثيل بهذه المشروعات والأبحاث بمثلين ، أحدهما أميركى ، والاخر بريطانى : أما الأول فمشروع وضعته لجنة ألفها معهد القانون الاميركى ، سميت لجنة المستشارين ورعى في تشكيلها أن تمثل الثقافات المختلفة بريطانية ، وأميركية (الولايات المتحدة وكندا) أميركية ، لاتينية ، فرنسية ، إيطالية ، ألمانية ، من العهد السابق على الحكم النازي ، إسبانية ، روسية ، بولندية ، عربية ، هندية . والمشروع مؤلف من ثمانية عشر مادة تثبت الحريات والحقوق الآتية : -

حرية العبادة ، حرية الرأى ، حرية القول ، حرية الاجتماع ، حرية تكوين الجمعيات ، الحرية الشخصية ، المحاكمة العادلة ، الوقاية من الحبس الظالم ، ألا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون ، حق الملكية ، والتعليم ، وما يتصل به من حرية وإلزام ، وهى إحدى عشرة حرية وحق التى اصطلحت الدساتير والوثائق القديمة على إثباتها كحقوق الانسان . وقد أثبت المشروع إلى جانبها حق الانسان فى العمل ، وحقه فى أن تكون شروط العمل معقولة ، وحقه فى الطعام والمأوى اللائق ، وحقه فى التأمينات الاجتماعية ، وحقه فى الاشتراك فى حكومة بلده ، والمساواة فى الحقوق والتكاليف بلامتياز فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين . ويختم تعداد هذه الحريات والحقوق بأنها مقيدة بحريات الآخرين وحقوقهم وبالمقتضيات العادلة للمصلحة العامة فى بلد ديمقراطية .

وقد قدم هذا المشروع إلى مجلس إدارة المعهد فقرر فى فبراير من العام الماضى انه ليس ثمة فى الوقت الحاضر احتمال معقول لأن يقوم المعهد بوضع وثيقة دولية لحقوق الانسان ، وان المعهد لا يأخذ على نفسه أن يستحسن المشروع أو أن يستنكره :

وأما الثانى فهو مشروع وضعه الكاتب البريطانى الشهير (ولز) ، وعرضه المناقشة العامة وبعد أن أبدى عليه ما أبدى من الملاحظات ، جمعت وعرضت هى والمشروع على لجنة يرأسها اللورد سانكي ، وهو من كبار رجال القانون البريطانيين فتولته بالتنقيح والتهذيب ، وأخرجته بعد ذلك مؤلفاً من مقدمة وإحدى عشرة مادة .

وفي هذا المشروع إسهاب وتفصيل ، وفيه بعض التخصيص مما دعت اليه حوادث النازيين وافعالم ، وقد لا يوافق كثير من الناس على بعض أغراضه واتجاهاته ، ولكن له بالرغم من ذلك كله . فضل الايضاح والبسط لمراعى العصر الحاضر فى بلده .

المقدمة : قلبت المائة سنة الأخيرة وجه الحياة المادية بما أحدثت فيها من ثورة ، فان الاختراعات والاكتشافات غيرت طبيعة المواصلات حول الارض وبين أجزائها المختلفة ، كما غيرت سرعتها ، وألغت بذلك المسافات التي كانت تفرق بين دول الأرض وشعوبها ، وزادت القوى الميكانيكية زيادة بالغة ، وأطلقت العزيمة الانسانية من عقالها ، فأصبحت قدرة الانسان على معاونة ، وإبذاء ، وقهر بعضهم البعض ، وعلى استغلال خيرات الطبيعة وتثبيتها ، وعلى استهلاكها ، وعلى تبديدها أعظم وأكبر مما كانت فى أى وقت مضى ، ولم يزل مدى التغيير يزيد ويمتد فى ثلث القرن الأخير حتى لقد بلغ ذروته .

لذلك صار من المتعين أن يلاءم بين حياة الانسان ونظمه ، وبين ما استحدثته هذه الاحوال الجديدة من أخطار ومن فرص ، تزداد على وجه الزمان ، وهاهو أولاً يجد نفسه مضطراً لأن ينظم التعاون بين أشقات الدول ذات السيادة ، بعد أن كان استقلالها ، بعضها عن بعض ، هو المطالب الأكبر ، كما يجد نفسه مضطراً لأن ينقذ الحياة الاقتصادية من التلف الذى حاق بها من جراء الاعمال التي لا تهدف الا الى الكسب ، فهو محمول فى شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قبول الاشتراك والشيوع ، وهو منفصل بذلك ، بلا هدى ودون مبالاة بسعادته ورفاهيته ، والحكومة بين أن تكون شيوعية ، تجعل المرافق بيد الدولة ، أو أن تكون اداة فى أيدي الهيئات الانتاجية والمالية ، ذات الصبغة الاحتكارية .

وقد أصبحت هيئات الدين ، ونظم التعليم ، والصحافة ، خاضعة لارادة الهيئات والافراد الحاكمين بأمرهم ، كما أصبح خاضعاً لنفوذهم ، الآداب والعلوم ، وغيرها من وجوه النشاط الاجتماعى ، التي عاشت حتى الآن مستقلة ، لا تعرف إلا وحي نزعاتها الذاتية .

وقد اعتادت البلاد الديمقراطية ، أو البرلمانية ، فى الماضى أن تعارض كل تركيز فى نظام القوة والسلطان ، باعادة تأكيد حقوق الانسان ، ولعله لم تعرض مناسبة أولى بهذا التأكيد من الوقت الحاضر ، واننا لموقفون بأن التجديد ضرورة لا بد منها ولا مندوحة عنها . ونرى جرياً على تقاليدنا

الماضية ، أن نقرن إلى هذا اليقين السعي إلى اعلان الحقوق ، لكي يدبر التجديد والانشاء ، وينفذ في وضوح النهار .

من أجل ذلك نعود إلى طريقة إعلان الحقوق التي أثبت الزمن صلاحها ، ونريده غير مقصور على بلد معينة ، بل شاملاً للعالم أجمع .

(١) حق الحياة : في هذا الاعلان يعتبر انساناً كل مخلوق بشري بلامتياز بحسب السن أو الجنس ، وكل إنسان وارث لكل ما جمعه وخلفه السلف ، من موارد وقوات واختراعات ووسائل ، وله الحق بقدر تلك الموارد ، وبلامتياز بحسب الاصل أو اللون أو العقيدة أو الرأي ، في الغطاء والغذاء والعلاج والعناية التي يحتاجها لتحقيق النمو الكامل لجسمه ولعقله ، وتبعث فيه صحة موفورة من المهد إلى اللحد ، ومهما يكن من اختلاف صفات الناس أو عدم تساويها فهم يعتبرون جميعاً وعلى وجه الاطلاق سواسية في نظر القانون ، متساوين في الحياة الاجتماعية ، متساوين في حق كل منهم في احترام الغير له .

(٢) حماية القصر : الاولياء الطبيعيون لمن كانوا في سن لا تسمح لهم بأن يحموا أنفسهم هم الوالدان ، فاذا لم توجد حماية الوالدين كلها أو بعضها ، فعلى المجتمع أن يرضى ، أو أن يهيئ ، حماية أخرى مع مراعاة تقاليد أسرة الصبي .

(٣) الواجبات نحو المجتمع : من واجب كل إنسان ، لا أن يحترم تحسب حقوق الآخرين في سائر أنحاء العالم ، بل أن يعمل على تأييدها وعلى تقدمها ، ومن واجبه فوق ذلك أن يؤدي للمجتمع الخدمات الواجبة لتحقيق الاغراض التي لا تكفي لتحقيقها الدوافع الحرة . . الخ

(٤) حق المعرفة . من واجب المجتمع أن يهيئ لكل إنسان القدر من التعليم الذي يجعله مواطناً نافعاً ذا اهتمام بالشئون العامة بقدر ما تيسره مؤهلاته ، كما يجب على المجتمع أن يقرب إليه أسباب المعرفة ، وأن يمكنه من أى تعليم خاص ، عملاً على تكافؤ الفرص ، وذلك لاستظهار مواهبه الخاصة في خدمة بنى الانسان ، ويجب أن توطأ له طوال حياته كل أسباب العلم بالشئون التي تمكنه من أن يكون حكماً على الحوادث والشئون الجارية .

(٥) حرية الرأي والعبادة . لكل إنسان الحق في أقصى حرية القول ، والمناقشة ، وتكوين الجمعيات ، والعبادة .

(٦) حق العمل . يجوز لكل إنسان أن يشتغل بأى عمل مشروع ، بشرط حاجة

المجتمع لذلك العمل ، وأن يكسب منه الأجر الذى تبرره الفائدة التى يجنيها منه الصالح العام ، أو رغبة أى شخص أو أشخاص فيما ينتجه ، أو فيما يعملها ، أو الأجر الذى ينتجه استمرار نشاطه .

(٧) الحق فى الملك الخاص . لكل إنسان ، فى التمتع بملكه الخاص المكسوب بالطرق المشروعة ، الحق فى الحماية من استعمال القوة أو العنف من جانب الهيئات أو من جانب الأفراد ، أو من أى سعى لحرمانه أو لأكراهه أو تهديده .

(٨) حرية التحرك . لكل إنسان أن يتحرك بحرية تامة فى أنحاء العالم على نفقته ، ولا يسوغ لأحد أن يقتحم مسكنه الخاص أو أى ملحق مسور ذى مساحة معقولة ، إلا بأذنه ، إلا أن يكون شخصاً له صفة قانونية يحمل الأمر بذلك طبقاً لأحكام القانون . وله أن يروح ويفدو حيث يريد فى البر أو البحر أو الجو ، فى السهل أو الجبل ، ما دام لا ينتهك حرمة ملك آخر أو يؤذى أو يشوه أو يعطل ما ليس له أو يتداخل فى استعماله ، أو يعرضه للخطر ، أو يسيء إلى سعادة الآخرين .

(٩) الحرية الشخصية . لا يجوز أن تقيد حرية إنسان مدة تزيد على ٢٤ ساعة ، بدون أن يكون متهماً بجريمة يعاقب عليها القانون ، ولا أن يحبس أكثر من ثلاثة أشهر بدون محاكمة ، وذلك ما لم تكن سلطة مختصة قد قررت أنه خطر على نفسه أو على غيره بسبب حالته العقلية الشاذة ، على أنه يجب أن يؤكّد هذا التقرير بعد ٧ أيام ، وأن يعاد فحصه مرة كل سنة على الأقل . ويجب أن يكون كل إنسان بآمن من الكذب أو تحريف الوقائع الأمر الذى يخرجه أو يسيء إليه ، وإن يكن من الواجب أن يظل خاضعاً لنقد الناس ، ولا يجوز سماع شهادة الشهود فى غيبته ، ولا يجوز أن يستعمل ما يدون فى الدوسيهات الإدارية لتسويغ أى مساس بالحرية الشخصية . وألا يعتبر دوسيه أى شخص أكثر من مذكرة لا يجوز استعمالها فى أى محكمة دون تأييدها بالبينة .

(١٠) الحرية من العنف . ألا يلزم أحد بأى بتر ، بغير رضاه ، وألا يعتدى على جسمه إلا لكف اعتدائه ، ولا أن يعرض إلى أى تعذيب أو ضرب أو أى إساءة بدنية ، ولا يجوز أن يعرض إلى أى إيلاام نفسى ، أو أن يحبس فى مكان تجوز فيه العدوى ، أو تكثر فيه الهوام والحشرات ، أو يكون غير صحى ، أو أن يحشر فى أشخاص معدين . فإذا كان هو نفسه معدياً ، أو

خطراً على صحة غيره ،ينظف ويظهر ويحجر عليه صحياً ،أو يقيد على أى وجه يرى ،ضرورة لمنع أذاه عن الغير .

(١١) حق التشريع . الحقوق المدونة في هذا الاعلان أساسية ولا يجوز التنازل عنها . على أنه لا مناص في الشؤون الاصطلاحية . كالسير في الطرق والحماية النقد من التزييف . أو في الشؤون الادارية . كالتنظيم ،وتدابير الصحة العامة ،من تقييد مدى هذه الحقوق .

ولا يكون القانون ملزماً للفرد أو الجماعة إلا إذا وضع بصورة علنية وإلا أن يكون قد رضي به صراحة أو ضمناً ،كل من بلغ سن الرشد سواء كان ذلك بأغلبية الأفراد أنفسهم مباشرة ، أو بأغلبية نوابهم المنتخبين انتخاباً علنياً . . الخ

على أن الحادث الأكبر في أمر هذه الحقوق هو الميثاق الأطلسي الذي أعلنه الرئيس روزفلت ،ورئيس وزراء بريطانيا ،في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١ ،وأطلقاه وثيقة سياسية يراد بها تأليف أمم العالم من وراء أغراض سياسية معينة . وكان قد سبقه رسالة من الرئيس روزفلت وجهها في ٦ يناير سنة ١٩٤١ إلى الكونغرس قال فيها .

في العهد المقبل الذي نسعى إلى تحقيقه ، نستشرف عالمًا يلبي على حريات أربع لا بد منها ، ولا غنى عنها .

الأولى — حرية القول والتعبير في كل مكان من العالم .
والثانية — حرية كل إنسان في أن يعبد ربه على طريقته في كل مكان من العالم .
والثالثة — التحرر من العوز ،ومعناه على مدى عالمي التفاهم الاقتصادي الذي يوفر لكل شعب حياة صحية آمنة لأفراده في كل مكان في العالم .

والرابعة — التحرر من الخوف ومعناه على مدى عالمي تخفيض عام للأسلحة إلى حد ، وعلى وجه لا يستطيع شعب معهما أن يقترف أى عمل من أعمال الاعتداء المادي على أى جاره في أى مكان في العالم .

وليس هذا حلمًا بعالم خيالي سعيد بعيد ، وإنما هي قواعد ثابتة لعالم يمكن تحقيقه في عصرنا ، وفي جيلنا .

وقد أشار الميثاق الأطلسي إلى الحريتين الأخيرتين وحدهما ، على أن الرئيس حين أباح ذلك الميثاق إلى الكونغرس قال ، ولست في حاجة لأن أشير إلى أن إعلان المبادئ التي

قام عليها الميثاق يتضمن ضرورة وحتمية حرية القول ، وحرية العبادة ، فإنه لا يستطيع أمة أن تعيش في ظل تلك المبادئ إذا لم تجتمع لها هاتان الحريتان فهما جزء لا يتجزأ من جملة الحرية التي نسعى لتحقيقها .

وقد أيدت عصبة الأمم المتحدة هذه المبادئ في أول يناير سنة ١٩٤٢ حين وافقت على الميثاق الأطلسي .

وقد عرض الكتاب في تحليهم لهذا الميثاق للبحث فيما إذا كان المقصود بهذه الحريات وبوجه خاص الحريتين الأخيرتين ، وهي التحرر من العوز والخوف الأمم أو الأفراد ، وربما كانت عبارات الميثاق ورسائل الرئيس روزفلت يفهم منها كلا المعنيين المختلفة على أن بياناً ذا مغزى خاص أصدرته إدارة استعلامات الحرب الأمريكية في ٩ أغسطس سنة ١٩٤١ عن الخطط التي يمكن أن تحقق بها الحريات ، يلقى ضوءاً على مقاصد الرجال السياسيين وهذا نصه . « تنوى الشعوب المتحدة أن تنشئ عالماً يقف فيه الناس معتدلين ، ويسيرون أحراراً . أحراراً ، لا من كل الهموم الانسانية ولكن من الخوف من السلطان المستبد . أحراراً في التكمّل أفراداً ، أحراراً في إدارة وتكييف أعمالهم .

والحريتان الأوليان ، الرأي والعبادة حريتان متصلتان بالثقافة ، وهما من مميزات الانسان المفكر ، الانسان المنشئ . يكفلهما في بعض الأحيان الدستور كما هو الحال في الولايات المتحدة ، حيث يفهمان حق الفهم . وحيث لا تزال القوانين التي تحميها يعاد النظر فيها باستمرار ، ويحكم ضبطها لنظراً محتفظتين بمعناها الأصلية .

أما التحرر من الخوف والعوز فلا يتعلقان بالثقافة ، وإنما يتعلقان بما يحيط ببني الانسان ، وهما يصفيان وقائع الحياة ، لا خواطر العقل ، فالانسان آمن أو طاعم ، بحسب ظروف الحياة التي يعيشها .

وليكون الانسان حراً ، يجب أن يعيش في مجتمع وقى وجوه الضغط والارهاق التي تجعل الناس عبيداً أرقاء ، إرهاب الحكومة المستبدة ، إرهاب عدم التسامح ، إرهاب العوز . فليس إعلان الحريات الأربع وعداً بعطية يتلقاها الناس في ظروف معينة ، وإنما هو إعلان لخطة للناس أن يأخذوا بها .

والحرية من أي نوع كانت نسبية . والشعوب التي وحد بينها الاتفاق على إنشاء عالم

أفضل من عالمنا الحاضر لانتمس انشاء المدينة الفاضلة التي لايعوز الناس فيها شئ، فليست هذه هي الغاية، كما ان ذلك ليس في مقدور الانسان، وانما يوحّد بينهم ما اعتزموه من انشاء عالم لايفتقد فيه الانسان أدنى ضرورات الحياة المنظمة اللائقة، أو يفقد فيه أسباب النظام، واحترام النفس والامن، ولعله مطمح سام، بعيد المنال، خصوصاً لمن لا يستطيع أن يعتقد شيئاً، ولكن يشفع له ايماننا بأن الارض خصبة الانتاج، وانها تفيض على الناس النعم والبركات، وان الانسان أصبح يملك الأداة التي تحقق ذلك الغرض، إذا شاء أن يستعملها.

وهذه هي العقيدة التي أجمع ممثلو ٢٩ دولة على الاخذ بها، وهي ليست وعداً من أى فريق من الناس لأى فريق آخر، وانما هي الأمم نفسها التي تستطيع أن تخلق الاحوال التي توطد تلك الحريات الضرورية، وهم الآن يشترونها في سوق الحرب، ويدفعون ارواحهم ثمناً غالياً لها، وفي هذا السوق لا تباع الاشياء بالثمن الرخيص، ولا يبنى البيت في أيام ثلاثة، واننا لنرجو في هذا العالم المضطرب المتخرب أن يشيد البناء بطيئاً وبقدر وتدبير، ولكن إذا اتحدت مقاصد هذه الأمم فان البناء سيرتفع مستقيم العمد موطد الاركان.

والآن وقد خلصت لنا صورة واضحة في حقوق الانسان، ومن تطور الرأى فيها، ورأيانها مجملة في الوثائق الرسمية، مفصلة في الاعلانات التي تضعها الافراد والجماعات، وعرفنا أنها لم تعد تقتصر على تقرير « الحريات الشخصية » للأفراد، من حرية شخصية بالمعنى الضيق، ومن حرية عقيدة، وحرية رأي، بل تعدى ذلك الى حقوق تكفل للانسان العمل والكفاف من الرزق، وجب أن نتساءل عن القيمة العملية لاعلان الحقوق، وأثره، وقوة إلزامه في الحياة.

ولعل مما يسهل فهم المسألة، أن يفصل ما بين الحريات والحقوق التي اصططلحت الاعلانات القديمة على تأكيدها، والتي دونتها الدساتير، والحريات، والحقوق التي أفاض المشتغلون بهذه المسألة القول فيها حديثاً، على أنها من الأغراض التي يجب العمل على تحقيقها في السلم المقبل.

أما الحقوق والحريات المدونة في الدساتير فيختلف حكمها باختلاف البلاد ، ففي أميركا (١) تعرفون أن المحكمة العليا تملك أن تقضى بأن قانوناً أقرته الهيئة التشريعية وأصدره رئيس الجمهورية جاء مخالفاً للدستور ، وإنما تفعل ذلك حين ترى مثلاً ان قانوناً عطل أو قيد أو خالف بأى وجه من الوجوه حقاً أو حرية أثبتها الدستور في فصله الخاص ببيان الحقوق ، وانه وان كانت المحكمة لا تقضى ببطالان التشريع في ذاته وتقتصر على عدم تطبيقه في خصوص الحالة التي تعرض عليها ، فانه يترتب على قضائها أن يصبح القانون غير معمول به ، فلا الحكومة ولا الافراد بعد صدور حكم المحكمة العليا تستطيع أن تطبق القانون أو أن تستند الى أحكامه خشية تجدد القضاء بعدم تطبيقه كلما شكاً منه شاك أو اعترض صاحب مصلحة على قيامه .

على انه يجب ألا يبالغ في قيمة قوانين الحقوق من هذه الناحية ، فان كثيراً من تقاريرها لا يشير الى حريات أو حقوق مطلقة ، وإنما يذكر الحرية ويترك للسلطة التشريعية أو القانون تنظيمها وبيان حدودها ، ومن الامور المسألة ان حريات الغير ، وان النظام العام (والآداب العامة) والمصلحة العامة ، قيود لا شك فيها لحريات الافراد وحقوقهم ، وواجب القانون أو السلطة التشريعية تعيين مقتضيات ذلك النظام أو الآداب أو المصلحة ، وهذه المقتضيات هي حدود الحريات وقد تسرف السلطة التشريعية أو تبالغ في تقدير تلك المقتضيات على حساب الحريات وفي مثل هذه الاحوال يمكن أن يقال ان القانون خالف حكم الدستور ، أو انه يترتب عليه تعطيل الحريات التي أعلنها للناس أو تقيدها . ويمكن إذن للأفراد أن تستعدى المحكمة العليا على عمل السلطة التشريعية ، وقد توسعت المحكمة العليا في تقرير حقها في النظر في صحة القوانين من الوجهة الدستورية ، ولكن ليس هذا مجال الكلام في هذا الشأن ، ويكفي أن نذكر ان القوانين تعرض للطعن في صحتها من الوجهة الدستورية إذا انتهكت المساواة ، أو الملكية ، أو الحقوق المكتسبة ، أو أخذت بالاحترام الواجب للعقود .

(١) ثار الجدل قديماً في أميركا في فائدة موثيق الحقوق وعرض لذلك هاماتون في رده على الاعتراضات على خلو الدستور التعاهدى من بيان ميثاق في ذلك النوع . على أن دفاع هاملتون عن الدستور في الطريقة التي وضع بها لم يكن يرمى الى أن تقرير الحريات في الدستور أمر لا ضرورة له أو لا فائدة منه وإنما يرمى الى انه لا ضرورة لافراد فصل خاص لها . فقد كانت حجته ان الدستور قرر في ثنايا أحكامه تلك الحقوق ، ومهما يكن في ذلك فان تنقيح الدستور بعد ذلك باضافة ميثاق الحقوق سنة ١٧٩١ جعل ذلك الجدل أمراً نظرياً .

على ان فضل اعلان الحقوق لا يقتصر في أميركا على ذلك فانهم يرون فائدة كبيرة من حيث تربية الناس على عرفان حقوقهم واحترام حقوق الغير . ومن حيث تنبيه السلطة التشريعية نفسها على خطر تلك الحريات ، وإلى وجوب الوقوف دونها وعدم تعديها . والواقع ان تخصيص الحريات بالاشارة ، والتفصيل ، والاشادة بذكرها ، والتنويه بجلالها وسموها على سلطان أقوى السلطات ، وهي السلطة التشريعية ، كل ذلك من شأنه أن يطبع احترامها في نفوس الحاكمين والمحكومين ، وأن يزيد في حرص الناس على تقديرها والمحافظة عليها . والحق ان سياج الحريات هو في نفوس الناس ، فاذا انطوت على احترامها فهي كريمة عزيزة المكان ، وإذاهانت عليهم هانت على حكامهم كذلك . ومن باب أولى فان لهم من انتهاكها الغنم العاجل ، غنم السلطة والاستبداد ، وان يكن ذلك غنما غير باق ولا مقيم .

وقد حاولت بعض البلاد الأخرى أن تحذو حذو الدستور الأميركي ، وهي قليل وليس لديها مالمدي الولايات المتحدة من تقاليد الحرية والذود عنها والنضال دونها .

أما سائر البلاد الدستورية فلا ترى لاعلان الحقوق ذلك الاثر العملي الذي يمكن من تعطيل القوانين في بعض الاحوال ، لانها وان كانت تسلم بأن القوانين درجات ، بعضها فوق بعض ، وان الدستور يعلو القوانين الأخرى ، فهي لا تولى المحاكم حق التعقيب على أعمال السلطة التشريعية وتحقيق تصرفاتها ، لمعرفة ما إذا كانت مطابقة للدستور أو مخالفة له . وعلى ذلك فهما يخالف القانون الدستور ، وهما تكن المخالفة صارخة ، فلا سبيل للمحاكم لان تعطل فعل قانون أقرته السلطة التشريعية ، ولا قبل لها بذلك ، والحق ان تولية المحاكم مثل هذا السلطان الرهيب يقتضي عادة طويلة على الاستقلال في الرأي ، والشجاعة الأدبية ، وإعداداً غير هين ، واختياراً دقيقاً لهيئة القضاء .

وإذا كان هذا الاثر لاعلان الحقوق يفوت غالبية البلاد الدستورية ، فانه لا يفوتها أثره الآخر الخاص بتنبيه الحكام الى إزام حدود الدستور وأثره في تربية الجمهور وتبصيره اياهم بحقوقهم يطالبون بها ويعملون على حمل المشرع على احترامها .

وهذان الأثران وان لم يكن لهما الا قيمة أدبية لا قانونية ، لا يجوز أن يهون من شأنهما ، فقد خلقا في البلاد الاوربية ، والبلاد التي أخذت عنها النظام الدستوري ، أموراً ومعاني تعتبر الآن من بديهيات القانون العام ، وهي تجري مجرى العرف الثابت ، نذكر منها على سبيل المثال :

ان القوانين لا تعلق الحريات العامة أو توقف الانتفاع بها على إذن السلطة التنفيذية ، وآية ذلك ظاهرة في حرية الصحافة، وحرية الاجتماع، وتكوين الجمعيات. وقد كان اشتراط مثل ذلك الاذن شائعاً في كثير من البلاد، كذلك لا يشترط في استعمال تلك الحريات شروط مالية كتأمين، أو غير مالية، مما يكون من شأنه أن يعوق استعمالها أو تقييدها . فاذا علق استعمال الحريات على شيء، فهو أدخل في الاجراءات البسيطة التي تعين السلطة التنفيذية على مراقبة استعمال الحريات، وتمكينها من تنفيذ القوانين. والاصل في الحريات ان الفرد يستعملها على مسئوليته ، سواء أكانت حرية في شخصه ، أم في عقيدته ، أم في رأيه ، أم في عمله ونشاطه . وهو لا يحاسب الا على ما يمكن أن يأتيه من أعمال مادية ، فليست النزعات أو خواطر الفكر محل حساب ، وليست كذلك جرائم الرأي .

ومن تلك البديهيات انه - فيما عدا العقود التي يبرمها الافراد برضاهم - لا سبيل لالزام الافراد بتكاليف للدولة أو للغير الا بقوانين ، ولا تستطيع التصرفات الادارية، سواء أكانت عامة أم كانت قرارات فردية، أن تفرض شيئاً من تلك التكاليف، الا في حدود القوانين، وتنفيذاً لها . وكذلك لا يملك الا القانون، وبعبارة أخرى السلطة التشريعية، أن تفرض جزاء سواء أكان جنائياً ، أم مدنياً ، أم إدارياً .

ويجب على أي حال التمييز بين القيود التي تلحق الحريات، على سبيل التعسف أو الاسراف، في تقدير دواعي النظام العام والمصلحة العامة، والقيود التي يستحدثها الشارع تحقيقاً لمعنى التضامن الاجتماعي والمدالة الاجتماعية، سواء كانت قيوداً واردة على حق الملكية في صورة ضرائب أو في صور أخرى، أم كانت قيوداً تتصل باشراف الدولة على مختلف وجوه النشاط الانساني للكف أو التخفيف من تناحر الناس وتنازعهم على الارزاق .

ومهما يكن من ذلك كله ، فانه لا شك في أن الحرية حاجة أساسية من حاجات الطبيعة البشرية . وان حمايتها وظيفة أساسية كذلك من وظائف الدولة ، فهي إذن أمر خاص بكل أمة وبالبحكومة القائمة فيها ، غير انه منذ شوهد ان قتل الحريات في بلد يجوز أن يكون تهديداً للنزعات الشرفية، ومقدمة لمناوأة البلاد الاخرى العداء، والاعتداء عليها ، واثارة الحروب ، ثبتت فكرة ان الحريات العامة لا يجوز أن يبقى العناية بها، والدفاع عنها، قاصراً على سلطات البلد، التي قد تكون

هي الجانية عليها، وان الدفاع عن الحرية الانسانية يصبح أن يدخل في اختصاص القانون الدولي، وأن يكون للدول شأن فيه .

ولا يخفى ان القانون الدولي، بوجه عام، لا يعرف أفراد الناس ، ولا يعترف الا أفراد الدولة، فليس لأحد الناس أن يلجئوا اليه أو أن يحركوا اداته . وكما ان دستور كل بلد يعترف لاهله بحقوقهم في الحياة ، والحرية ، والمساواة ، والملكية ، فان دستور الدولة، أو القانون الدولي ، يعترف لأفراده ، وهم الدول ، بحريات وحقوق شبيهة بتلك ، هي : حق السيادة، والاستقلال، والمساواة ، وحق الدولة على أرضها . وهذه الحقوق تنفي اشتغال بلد بحالة رعايا بلد آخر . على أن القانون الدولي عنده قديماً حقوق الأفراد ، حين يكون هؤلاء الافراد مقيمين في بلد غير بلدهم ، وجرى العرف بالتسليم بحق الدولة التي يكونون من رعاياها بحمايتهم في الخارج . وأصبحت بذلك حقوقهم وحررياتهم بأمن من العنف ، بل غلت الدولة في بعض الحالات فأصبحت حالة أولئك الاجانب خيراً من أحوال الأهليين . ثم اتسع نطاق الحماية الدولية ، فشمل الرقيق، ثم شمل الاقليات الدينية في الدولة العثمانية . وأخيراً ابتدعت معاهدات الصلح التي تلت الحرب العظمى الماضية ، نظام الانتداب ، والاحكام الخاصة بحماية حقوق الاقليات ، وأصبح يترتب على تلك المعاهدات ان قد يكون لدولة أن تحتج على انتهاك حرمة أحكامها ، ولو كان هذا الانتهاك في صدد أحد رعايا الدولة التي يقع عليها الاحتجاج .

وقد بدا لبعض الكتاب أن يعتبروا تلك السوابق نواة الحماية الدولية لحقوق الانسان ، فلو ان تلك الحقوق دوت وأعلنت في وثيقة دولية عامة وقعتها جميع الدول لصحت أولاً سبباً قاطعاً لحق الدولة في حماية رعاياها في الخارج والاعتراض على الحريات التي تمس حررياتهم وحقوقهم، وقد يجوز بسبب عمومها أن تعتمد سبباً كذلك لحق كل دولة في الاعتراض بالطرق الدبلوماسية على تصرفات لاتتال رعاياها بل تمس رعايا دولة أخرى، أو رعايا الدولة التي يقع عليها الاعتراض أفراداً أو جماعات، ولكن التسليم بمثل هذا الحق من شأنه أن يفضي الى اغراء بعض الدول بالتدخل في شئون البلاد الاخرى . ولعل فيما كان يجري بالنسبة لتركيا على أثر معاهدة برلين في سنة ١٨٧٨ عبرة تقضى بتجنب فتح هذا الباب . ولذلك لا يرى الكتاب الداعون للحماية الدولية لحقوق الانسان مندوحة عن انكار تدخل الدول بالطرق الدبلوماسية لهذا الغرض، ويقترحون أن يكون أمر التدخل محصوراً في هيئة دولية ، ك لجنة الانتدابات في عصبة الامم مثلاً،

فان خشى أن يتأثر أعضاؤها بدوافع سياسية ، ورئى انها لا تكون مأمونة على مثل تلك الحقوق ، فليكن أمر التدخل بيد هيئة قضائية دولية تنصف الشاكين ولو كانوا من رعايا الدولة الظالمة ، وتأخذها باحترام الحدود المرسومة في تلك الوثيقة العامة .

ولا شك ان الغاية التي يطمح لها أمثال هؤلاء الكتاب بعيدة المنال ، وقد لا تكون مستحبة لما ينطوى فيها من أسباب الاضطراب التي تنجم عن تدخل هيئة دولية خارجية بين الدولة ورعاياها ، لاسيما إذا كانت تلك الهيئة سياسية . وقد يدل اقتراح هذه الوسائل على الاكبار والتقدير لحقوق الانسان . وهذا الشعور إذا استقر وثبت في قلوب المشتغلين بالشئون العامة في الدول المختلفة لا شك كفيل بأن يجد أهل كل بلد الضوابط الملائمة لازام كل سلطة حدها ، وتكون حماية الحريات والحقوق بذلك قد تمت على يد أهلها ولم تفرض عليهم من الخارج . وقد لا يكون الاعتراض على تولية هذه الحماية هيئة قضائية دولية قوياً كالاعتراض على توليتها هيئة سياسية ، ولكنه اعتراض لا يخلو مع ذلك من الوجاهة والخطر .

والحقوق التي تقررها الدساتير في البلاد العربية ، سواء فيها حق المساواة في الحقوق والتكاليف ، أم الحريات ، تقرر لجميع المواطنين ، لا تميز بينهم فيها بسبب الاصل أو اللغة أو الدين . فليست الاقليات في تلك البلاد بحاجة من حيث تقرير الحقوق الى مزيد . وانما الحاجة بالنسبة للاقليات والأغلبية معاً تكون ماسة لحماية تلك الحقوق لا لتقريرها . أى للحيلولة دون انتهاك سلطات الدولة لحرمة تلك الحقوق . وسبيل ذلك أن توفر الضوابط للأفراد لاستعداد المحاكم على تصرفات السلطة التنفيذية ؛ وهذه الضوابط متوفرة ولكنها ليست تامة ، ولا يزال من الممكن تهذيب الطرق التي ينتصف بها الافراد من عسف الادارة وزيادة وسائل الانصاف .

أما استعداد المحاكم على تصرفات السلطة التشريعية على الطريقة الاميركية فيحتاج إلى إعداد أطول وسبل أدق ولكننا لانيأس من بلوغه .

كلامنا حتى الآن في الحريات التي قررتها الدساتير واعلانات الحقوق ، وهي بوجه عام حريات سلبية لا تقتضى الدولة لتوفير الحماية لها الا أن تتركها ولا تتعرض لها ، ولكن الحريات التي أضافتها الابحاث الحديثة ، والتي ترمى الى توفير العمل للأفراد ، وكفالة أرزاقهم في حدود متواضعة طبعاً ، وتأمين صحتهم ، وزيادة تثقيفهم . هذه الحريات من نوع آخر ، إذ هي تقتضى من

الدولة أعمالاً إيجابية ، ولا يتيسر على الدولة تحقيقها إلا إذا ازدادت مواردها واتسعت وجوه نشاطها.

وهذه الديمقراطية الاقتصادية التي ترمى الى توفير كرامة الانسان وتحقيق رفاهيته ، بعد أن وفرت له الديمقراطية السياسية حرياته ، لا تنال طفرة كما كان الحال في حريات الدساتير الأولى ، بل هي تلمس أسبابها ، وتمهد وسائلها تدريجاً ، ويجب أن تعالج بالصبر وبعد النظر . وهي على خلاف الديمقراطية السياسية ليست بطبيعتها مسألة داخلية لا تعنى إلا أهل البلد الواحد . فإن المبادلات الاقتصادية جعلت من العالم جسماً واحداً بحيث إذا تألم جزء تداعت له سائر الأجزاء . ويجب إذاً لتحقيق تلك الديمقراطية أن تتعاون الدول وتأخذ بعضها بيد بعض ، فبال تعاون يشهد عضدها ويحسن حالها . ولا حاجة في سبيل إقناع الدول بضرورة التعاون أن يخاطب فيها روح التجرد من المنافع وإيثار الغير ، بل يكفي أن تخاطب فيها الأنانية ، فإن الأنانية نفسها تجعل ذلك التعاون واجباً . والواقع أن رفع مستوى الحياة في أى بلد ينبغى فيه زيادة قوة الشراء للفرد العادى ، ولا يتيسر ذلك إلا إذا زيدت الموارد ، وحسن التوزيع . وزيادة الموارد مرهونة بأن ينصرف كل بلد الى مزاوله أقصى ما يستطيع إحسانه من أسباب الانتاج ، مما يكفي لأن يوفر لسكانه درجة الرفاهية المطلوبة . وإذا قصرنا النظر على البلاد العربية فأننا واجدون بها موارد لا حصر لها لما تستعمل بعد ، بل الزراعة التي هي في كثير منها قاعدة الحياة وأساس الثروة قابلة المزيد والتحسين ، ناهيك بالصناعات وباستخراج المعادن والزيوت من بطن الارض ، فإذا استثمرت تلك الموارد الى أقصى حدود الطاقة ، اتسعت أرزاق أهل تلك البلاد وأصبحوا قادرين على أن يشتروا من غيرهم السلع التي لا يحسنون صنعها وينتجها غيرهم . والتي أصبحوا يستشعرون بما حدث لهم من اليسر حاجة اليها ، وبذلك ينشأ طلب جديد لسلع البلاد الأخرى وهكذا دواليك ، رخاء كل بلد يحجر رخاء غيره . وقد كانت الانانية في صورتها القديمة تأبى على بعض البلاد إلا أن تجعل غيرها ذليلاً فقيراً خشيّة أن يكون إثراؤه مغنياً له عن سلع البلاد الصناعية السعيدة ، أما التعاون الواجب فقد يكون بالمال وقد يكون بالرجال ، ولكن لعل أهم مظاهره حسن تنظيم شئون العالم واستشعار الدول معنى التضامن الانساني .

وإذا كنا قد أنكرنا أن تكون حماية الحريات في كل بلد أمراً مشاعاً بين الدول ، فأننا لندعو

ونلح في أن يكون تحقيق التحرر من العوز أمراً تتعاون فيه الدول وتتساند وأن تعدل كل منها عن سياسة « بعمى الطوفان » .

وقد أجمع القوم على أن التحرر من الخوف يقتضى حشد كل القوى ، واجتماع الكلمة ، وحسن توزيع أسباب الدفاع ، والوقوف في وجه المعتدى ، وليس التحرر من العوز بمختلف عن التحرر من الخوف .

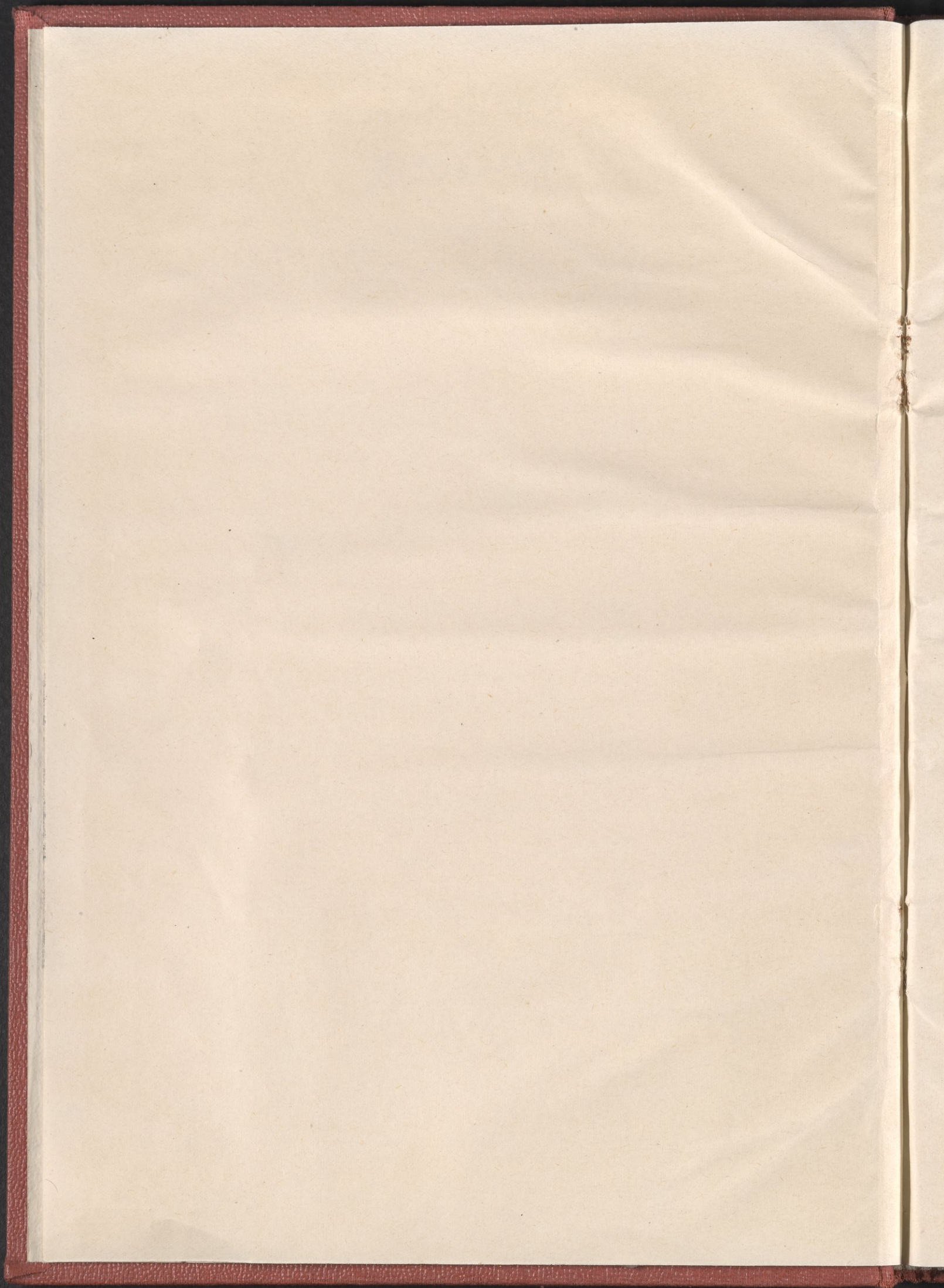
ولا يسعنى ، وأنا أتحدث اليكم في مؤسسة أميركية إلا أن أنوه بما فعلته وتفعله أميركا في نشر رسالة رفع مستوى الحياة لبنى الانسان وتأمينهم من الخوف .

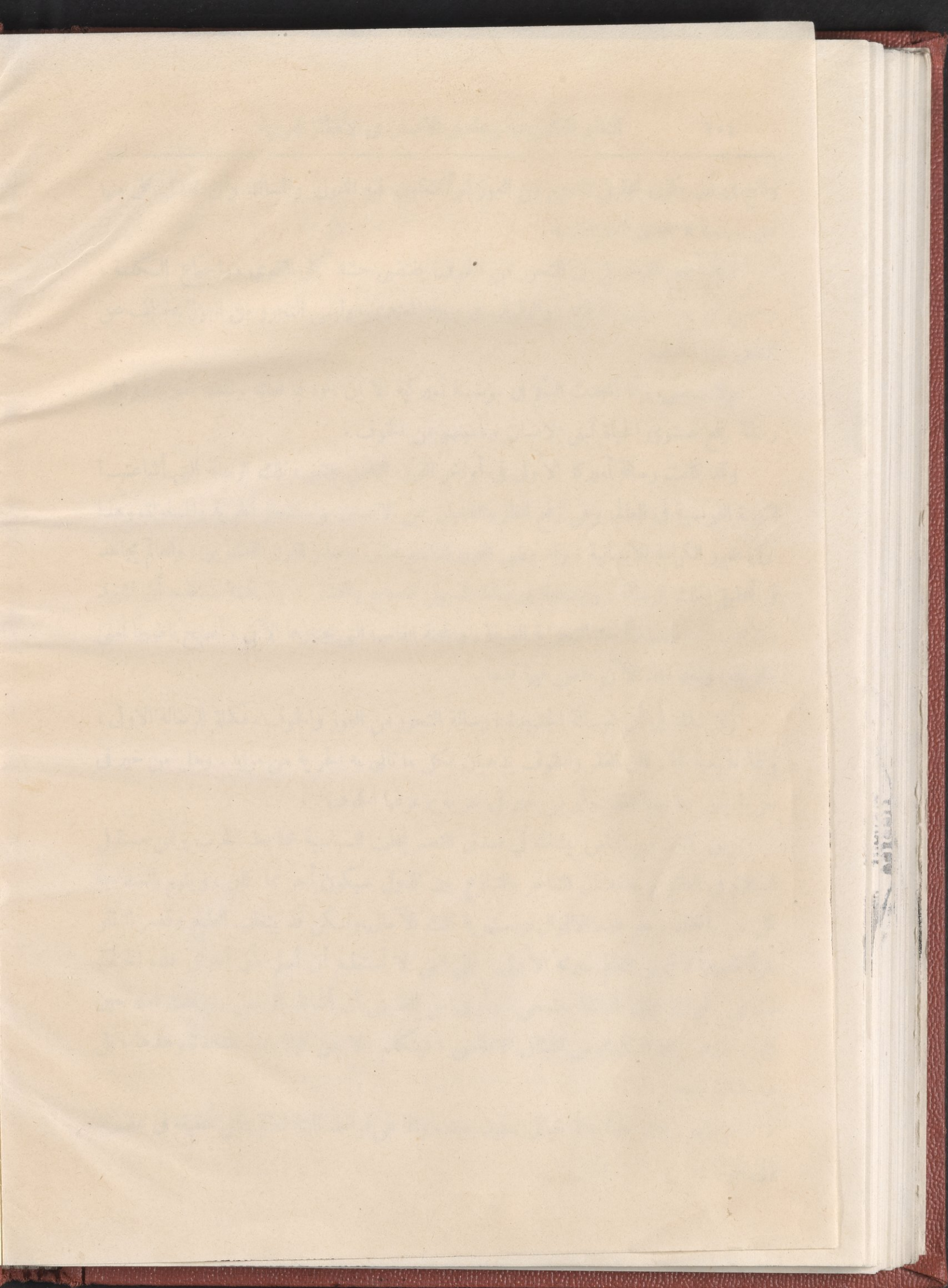
وقد كانت رسالة أميركا الأولى في أواخر القرن الثامن عشر ، تلك الرسالة التي أشاعتها الثورة الفرنسية في العالم ، وهى رفع الظلم والطغيان عن الانسان ، واستشعار الحرية والمساواة ، وهذا أول صور الكرامة الانسانية . وقد مضى القرن التاسع عشر ، وصدر القرن العشرين ، والعالم يجاهد في تحقيق تلك الرسالة ، ويتداوله في ذلك السبيل النجاح والفشل ، ولكننا نستطيع أن نشهد بأن العالم ، خصوصاً بعد التجربة العنيفة ، والمحنة القاسية التي يجتازها الآن ، أصبح ناضجاً لمعنى الحرية ، ولعله منذ الآن ماض فيها قدماً .

ولا شك في أن الرسالة الجديدة ، رسالة التحرر من العوز والخوف ، مكمل للرسالة الاولى ، وتمة طبيعية لها ، فان الفقر والخوف يذهبان بكل ما تأتى به الحرية من مزايا . وهل من خير في حرية يذل صاحبها الفقر ، أو من خير في حرية يزعزعها الخوف ؟ .

وان كثيراً من الناس ليشك في صدق التصريحات السياسية عما بعد الحرب وعن مستقبل السلام في العالم ، ويعتقد ان التناحر والتنازع بين الدول سيكون أحر مما كان ، ويتهم بالسذاجة كل من يأخذ سحر هذه الأقوال ، وتستهو به تلك الآمال ، ولكن قد يتغلب الطبع وقصر النظر حيناً قصيراً ، فيسير العالم سيرته الأولى . على اننى لا أستطيع أن أسلم بأن أهوال هذه الحرب ستنتهى ، أو ان عظمتها البالغة ستمحى . وأرى من الطبيعي أن أشاطر الرئيس روزفلات أهله حين يقول ، وهو يبلغ الكونغرس الميثاق الاطلسي ، فيتكلم ، لا عن الولايات المتحدة وحدها ، بل عن العالم أجمع :

« وليس هذا حلمًا بعالم خيالى سعيد بعيد ، وإنما هى قواعد ثابتة لعالم يمكن تحقيقه في عصرنا ، وفي جيلنا »



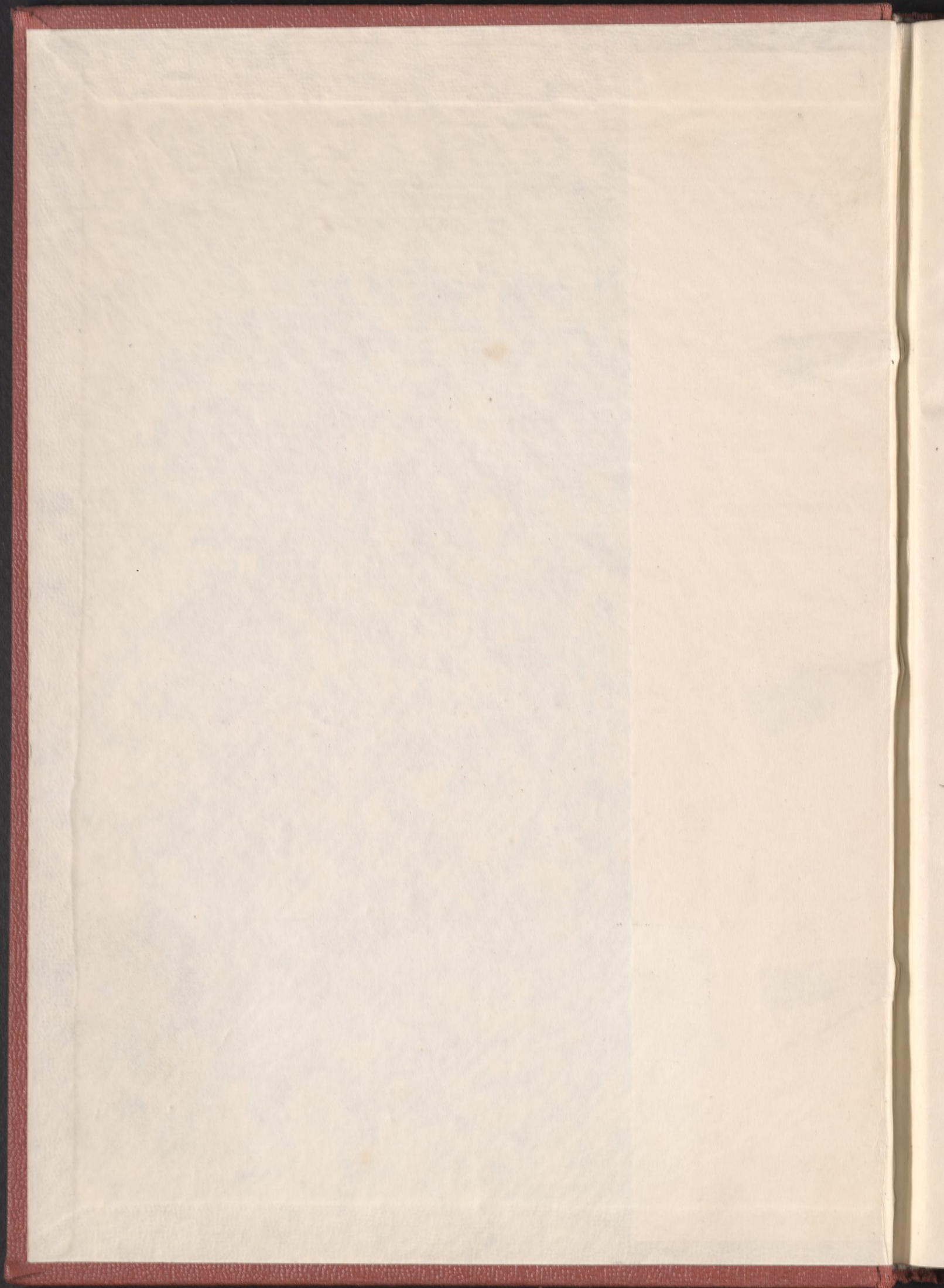


i 14 813646

B13062244

DS
63
A48x
1946

APR 1 1976



DS
63
A48:
1948